ابراهيم هاشم فلالي

أينَ نحنُ اليوم ؟

رابطة الأدب الحديث

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحجاز الذى هو الوطن الأول للإسلام . والذى فيه قبلة المسلمين ومشاعر حجهم ومسجد رسول الله . يجب أن يحتفظ بسلطانه الروحى ومكانته التاريخية المجيدة .

ولا يتمكن الحجاز من الاحتفاظ بهذا السلطان وتلك المكانة . مالم يكن مصدر إشعاع قوى ، لا للمسلمين فقط ولكن للعالم بأسره .

ذلك لأن الإسلام الذى بزغت أنواره من ربوع الحجاز لم يكن ديناً إقليمياً أو عنصرياً أو قبلياً ، ولكنه دين إنسانى عالمى . والإسلام ليس كغيره من الأديان الأخرى . فهو لا يقتصر على العبادات فقط . بل يتخذ من العبادات التى افترضها أداة لتهذيب النفس وتصفية الروح ليهيىء الإنسان للعمل على حل مشاكله والتغلب على نوازعه ونزعاته . ليكون حله لمشاكله حلا سليما سامياً يستوى فيه الأحمر والأصفر والأسود والأبيض . فالعبادات التى افترضها الإسلام وسيلة لغايات أعلى . وأهداف أسمى .

فالإسلام — مثلا — يأمر بالمساواة المطلقة بين الناس جميعاً . لكن النفس البشرية . بما علق فيها من أدران ونقائص . لا تستجيب إلى تحقيق المساواة مالم تتخلص من أدرانها ونقائصها .

فَشُرِعَتْ العبادات فى الإسلام . لتخليص النفس البشرية من ذلك . والرقيب الدائم ، أو المناعة الدائمة التى تقى النفس الإنسانية من شرورها . أو العودة إلى شرورها هو تكرير العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وغير ذلك من الفروض والنوافل التى أوجبها الإسلام أوحث عليها .

وآيتنا على أن العبادات وسائل لغايات أسمى قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » : وقوله عليه السلام « خير ما يتقرب به العبد إلى ربه كلمة حق عند سلطان جائر » أو كما قال . وقول الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

فالغايات السامية ، والأهداف العليا ، التى جاء من أجلها الإسلام بينة واضحة فى الآيات البينات التى يزخر بها القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الوثيقة الصلة بروح القرآن الكريم . وقد فهم كل ذلك الحجازيون السابقون للإسلام فهما لا التواء فيه ولا عوج . فتمثل فَهْمُهم للإسلام فى أقوالهم وأفعالهم ، حتى لكأن أشخاصهم وذواتهم استحالت إلى كلمات قرآنية كريمة ماثلة فيهم . فأقبل الناس على الإسلام رغبة لا رهبة ودخلوا فى دين الله أفواجا .

وقد جعل الله بلادنا مثابة للناس وأمناً . فيجب أن تكون فيها حرية إسلامية كافية ليثوب إليها الناس . ويجب أن يكون الأمن فيها شاملا فلا يخاف فيها إنسان — أى إنسان — على نفسه ، ولا على ماله ، ولا على عرضه ، ولا على عقيدته ولا يخشى فيها من إجحاف أو ظلم أو إرهاق أو جور يمسه . ويجب أن تكون فيها العدالة الاجتماعية سائدة والعدل فيها محققا . ويجب أن تكون الشورى فى الحكم هى الدعامة الأولى التى ترتكز عليها جميع الأحكام والنظم فى جميع مرافق البلاد .

ويجب على أبناء هذه البلاد أن ينفضوا عن أفكارهم ، وعقولهم ، المفاهيم التقليدية العمياء للإسلام . ويتخلقوا بأخلاق القرآن . ويأخذوا بالأسباب الصحيحة التى تصل بهم إلى حياة صحيحة مبرأة من الضعف منزهة عن العيب ، مشرقة بالنور . وبذلك يستطيعون أن يجعلوا الحجاز مصدر إشعاع قوى للإسلام . وبذلك وحده يصبح الحجاز مثابة للناس وأمناً كما جعله الله .

* * *

إن كثيراً من الناس يصمون الإسلام بما ليس فيه . والذين يصمونه بذلك فإنما هم يحكمون عليه بحالة المسلمين . وقد يكون لهم العذر إذا خلطوا بين المسلمين والإسلام فنسبة المسلمين للإسلام جعلت منهم عنواناً له . وليس لغير المسلمين غيرة على الإسلام تدفعهم للبحث عن حقيقة الإسلام وتصحيح الأخطاء التي فُهمت عنه . ولا تقع التبعة في كل ذلك إلا على المسلمين أنفسهم . وهم المسؤولون أمام الله وأمام التاريخ عن هذه الوصمات التي ألصقت بالإسلام زوراً ولا تزول الأخطاء العالقة بأذهان الذين يجهلون الإسلام بتأليف الكتب و إلقاء الخطب والمحاضرات . فما أكثر الكتب وما أكثر المحاضرات وما أكثر الخطب التي نافحت عن الإسلام ، وصدت غارات المغيرين عليه . إنما السبيل الوحيد لإزالتها هو تحقيق معاني الإسلام في بلادنا وتحقيقها في معاملاتنا وتحقيقها في كل شؤوننا ما جل منها وما صغر أو بعبارة أخرى إحالة المعاني الإسلامية إلى أشخاص حية . ذلك و بذلك وحده — إذا كنا مخلصين لديننا — ندفع عن الإسلام كيد الكائدين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله في أرضه .

اما أن يكون هـذا النور محصوراً بين دفتي المصحف . وتبقى دفتا المصحف مطبقتان على ذلك النور ، دون أن نستضيء به في الظلمات التي نحن فيها . فتلك هي الإساءة التي تفرع كل إساءة لحقت بالإسلام وتلحق به في مستقبل الأيام .

و إذا كانت المسئولية تقع ـ في ذلك على كافة المسلمين ، فالحجازيون يأتون في المقدمة . لأن المفروض فيهم أن يكونوا أحرص من غيرهم على التمسك بالإسلام ومعرفة روحه والعمل على تطبيق مبادئه وتشريعاته والتخلق بأخلاقه . ذلك لأن الحجاز قبلة المسلمين إليها يتجهون ، وبها يلوذون . فإذا لم يجدوا في مشرق النور نوراً . وفي مهد الأمن أمناً ، فلا يعودون على أنفسهم كثيراً باللائمة لأنهم يرون في أبناء الحجاز أسوة يتأسون بهم في تقصيرهم عن أداء واجبهم نحو الإسلام .

إن العبأ الملقى على عواتقنا نحو الإسلام ثقيل . ولـكن الله الذي لم يتخل عن أسلافنا الذين حملوا العبأ راضين . ووهبوا أنفسهم وأموالهم للاسلام ووقفوا بجانب

رسول الإسلام ثابتين ثبوت جبال الحجاز الشوامخ . لا يتخلى عنا . والله الذى أظهرهم بالحق حتى دانت لهم الدنيا . والله الذى اختص بالعزة نفسه وخص بها رسوله والمؤمنين . ما زال ولن يزال يرعى بعينه من يعمل لنصرته ورفعة دينه . فلنعمل لذلك إن كنا عاملين . وسيبدل الله — ما عملنا له — ذلنا بعزته وضعفنا بقوته . وسينصرن الله من ينصره .

* * *

إن بلادنا يجب أن تكون مصدر إشعاع إسلامى قوى باهر . فإن الإنسانية اليوم فى حاجة ماسة لأن تفيء إلى أمر الله ، لتتخلص مما هى فيه من قلق واضطراب ولتباعد بينها وبين الحروب الذرية المدمرة .

فعلى المسلمين أن يحملوا المشاعل لتبصر الإنسانية طريق الخلاص مما هى فيه من شقاء وحيرة .

إن الرأسمالية أثقلتها قواها الطاغية وسيأتى طغيانها عليها ويقوض أركانها . والشيوعية لا يمكن أن تدوم لأنها نظام لا يتلاءم مع طبيعة النفس البشرية وما فى هذه النفس من إشراقات علوية تبثق فيها من ناحية . وغرائز نابعة من تكوينها لا يمكن أن تتخلى عنها ، من ناحية أخرى . وهى تميل إلى اشباع الناحيتين . وفى الإسلام وحده ما يرضى النفس الإنسانية مادياً وروحياً . دون أن يطغى جانب على جانب .

فقد وضع الإسلام . . نظاماً للحكم فجاء هذا النظام منزهاً عن مساوىء كل النظم التى عرفتها البشرية منذ خلقها الله إلى يوم الناس هذا . ووضع نظاماً للتمليك إرضاء لغريزة النفس الإنسانية . ولكنه تنزه عن كل مساوىء التمليك فى النظم الأخرى . وكفل الإسلام كرامة الإنسان وكل ما يحفظ له هذه الكرامة مدى الدهر ، وضمن للانسان الحرية فى معتقده وفى تفكيره وفى عمله ، ولكنها حرية لا تبذل فيها ولا انحلال ، ووضع نظماً وتشريعات فى القضاء وفى المواريث ، وفى المعاملات الفردية ، والمعاملات الأممية بما يكفل للانسانية حريتها ورخاءها واستقرارها ، وأمنها وسلامها

وجعل الرقابة على كل ذلك لضمير الإنسان ، وضمن لهذا الضمير حياته بما فرض من عبادات يؤديها الإنسان فى أوقات منظمة ، ومواعيد محددة ، لئلا تنصرف نفسه عن مراقبة الله فى أعماله . وخنق الجريمة بحيث لا تجد لها متنفساً فقضى على أسبابها بإعطاء كل ذى حق حقه أولا ، ثم سن لها الروادع القانونية ، إذا ساد فى المجتمعات ما يقضى على أسبابها ، من العدل فى الحكم ، والتساوى فى الحقوق ، وتهيىء الفرص و وتكافئها للعاملين .

واعترف الإسلام بالمواهب والملكات ، وفتح لكل موهبة وكل ملكة وكل نبوغ إنسانى مجال العمل والنشاط .

وحث على العلم وأشاد بأهله واختصهم بالرفعة ، ودعى إلى القوة والأخذ بأسبابها ، ودعانا إلى التفكر والتأمل المنتجين .

فعلى المسلمين أن يبينوا عن إسلامهم وما فيه من توجيهات إلهية بالأعمال ، وأن يجعلوا من آيات الله البينات شخوصاً حية يلمسها الناس فى حياتهم ، ويحسونها فى أعمالهم ، ويرونها بأعينهم ، و بذلك يؤدون ما يريده الله منهم ، ويكونون كما جعلهم الله أمة وسطا ، وشهداء عل الناس .

* * *

وبعد ، فإنى أقدم لأبناء القبلة خاصة وللمسلمين عامة فى كتابى هذا بعض المحاضرات التى ألقيتها فى أماكن مختلفة فى الحجاز وفى مصر ، وبعض المقالات التى سبق لى كتابتها فى بعض المجلات بالحجاز ومصر . وبعض الأحاديث التىأذيعت من راديو مكة المكرمة ، وكلها تنتظمها فكرة واحدة استولت على ذهنى وملكت على مشاعرى ، تلك هى تحرير المفهوم الإسلامى مما علق به من ركام الأجيال المظلمة والدعوة إلى الإسلام « المصفى » من كل شهوة ومن كل غرض ومن كل هدف غير الحق . الذى يريده الإسلام ، ورب الإسلام ، ونبى الإسلام ، فدين الإسلام دين الإنسانية الخالد يريد من أبنائه أن يغيروا من خط سيرهم ، وينظروا للاسلام النظرة

الواعية الفاهمة المخلصة ، فإن كثيراً من الآراء لصقت بالإسلام وأصبحت منه وهو بريء منها ، وكثير من الأعمال أرتكبت بإسم الإسلام والإسلام برىء منها ، وكثير من الخرافات ألصقت بالإسلام والإسلام يجافيها حتى ساءت سمعة الإسلام ووصم بما ليس فيه ، وتركت أمور بحجة أن الإسلام يأمر بتركها وهى من صميم الإسلام . .

فعلى الذين لا يرون ما أراه مما جاء فى هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم ، أن يناقشوا فيه مناقشة منزهة عن الهوى والغرض والتقليد وأن لا تأخذهم العزة بالإثم ، فإن الحق أحق أن يتبع .

ولتكن أخلاقنا فى الأقوال والأعمال أخلاقاً قرآنية ، وبذلك تخرج المناقشة عن الميل إلى الهوى ، والانتصار للنفس ، والله أسأل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه .

* * *

وأخيراً فإنى أقول :

لو أن المسلمين فهموا الإسلام كما فهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه السابقون ولم يلههم زخرف الحياة الخلاب وزيفها الرخيص عن الحقائق العلمية والعملية التى تزخر بها آيات القرآن الكريم . لاكتشفوا الكهرباء قبل اديسون . والأثير قبل ماركونى . والذرة قبل أن يكتشفها علماء أوربا . وقبل أن يكتشف علماء الطب فى أوربا ميكروبات الأوبئة الفتاكة كالطاعون والكوليرا والتيفويد والملاريا وغيرها من الأمراض ولعرفوا طرق علاجها والوقاية منها بزمن بعيد . ذلك لأن الإسلام منذ بزوغ أنواره على الأرض دعى للعلم وأباح موارده لكل الناس بعد أن كان العلم محظوراً إلا على فئات خاصة . وأمر باتخاذ القوة . وطبيعى أن القوة ليست فى الجهل . والعزة لا تتأتى لأحد إلا إذا كان قويا . والقوة والجهل ضدان متناقضان . وحيثما وجدنا الجهل وجدنا الذلة والهوان والظلم والطغيان والبؤس والحرمان والفقر والمرض . وتلك هى أخطر الآفات التى لا يرجى معها حياة بله العزة فى الحياة .

إن نهضة أوربا ووثبتها هذه الوثبة البعيدة فى مختلف النشاط الإنسانى لم تكونا إلا بعد اتصال أوربا واحتكاك أبنائها بالمسلمين . وقد فهم الأوربيون الدين الإسلامى — كما يجب أن يفهم — فكيفوا كثيراً من نظامه وتشريعاته فى بلادهم بما يتلاءم مع ذهنيتهم . وإن جحدوا فضل الإسلام وتعاليمه العالية الرفيعة . فإنما جحدوه تعصباً وعناداً . وإن كانوا يحاربون أهله ويعملون إلى إبعادهم عن الوصول إلى حقيقته وصولا مثمراً فلأنهم يخشون من وثبة المسلمين ووقوفهم موقف القوى المنيع فى وجوههم ذلك هو سر محاربتهم للإسلام والمسلمين فى السر والعلانية .

إن ديننا هو النبراس الذى يضىء لنا طريق الخلاص مما نحن فيه من ذلة وهوان وانتقاص .

فيجب أن نفهم الإسلام فهما صحيحاً وعلينا أن نعلنها حرباً شعواء على كل من يحول بيننا وبين أخذنا بأسباب الحياة الصحيحة لنقف مع الأحياء ، ولا نقف مع الأحياء أنداداً متساويين إلا إذا حاربنا المرض وحاربنا الفقر وحاربنا الجهل وحاربنا التعلق بالزيف الرخيص والمجد الزائف فى شخص كل متعلق بهما . إننا نريد أن نفهم الإسلام والإسلام يريد منا أن نفهمه . وذلك ما يريده الله فلنحقق إرادة الله بالفهم الصحيح . والعمل الصالح . ولنتق الله فى ديننا ، وفى أمتنا ، وفى أنفسنا ، والله مع المتقين ؟

أين نحن اليوم (*) ؟!

نعم أين نحن اليوم ، من عالم اليوم ؟ ولكى أجيب على هذا السؤال الذى دار بخلدى زمناً طويلا يجب أن ألم بحقيقة الواقع لأعرف بالضبط أين نحن من عالمنا ؟ .

إننى فرد من هذه الكتلة الضخمة التى يقال لها : العالم الإسلامى . ولكل فرد فى هذه الكتلة حق التفكير فيها وفى مصيرها ، ومعرفة موضعها بين مواضع مثيلاتها من الأمم المتكتلة .

وذلك الحق من الحقوق التى منحها الإسلام لكل فرد من أبنائه « فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وما دام الإسلام أعطانى هذا الحق فلماذا أمتنع عن أخذه ؟ .

إن الذين يثبطون العزائم بقولهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » لم يفهموا هذا الحديث النبوى الكريم حق الفهم ، أو أنهم يفهمونه ولكنهم يموهون على الناس الحقائق ، متخذين من الحديث الشريف أداة للتمويه والمغالطة . كيف يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص إذا كان إخوانه فى العقيدة ووضعهم فى الحياة لايعنيانه ؟ إن « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » لا يعنى أكثر من الحث على حسن سلوك المسلم مع إخوانه المسلمين فى حياتهم الداخلية الخاصة ، فإن ذلك لايعنيه حقيقة فى كثير أو قليل مالم يطلبوا إليه العناية والاهتمام بذلك .

أما حياة المسلمين العامة فيجب أن يعنى بها كل فرد من أفراد المسلمين بدافع من نفسه ، ويفكر فيها ، ويهتم بها ، ويسهم فى خدمتها ، وتقوية بنائها ، والذب عنها . وإلا كان مقصراً فى حق دينه وأمته وأبناء ملته .

(*) نشر هذا البحث تحت هذا العنوان بإمضاء (ابن الحسن) فى مجلة الثقافة فى أعدادها ٦٧٠ فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥١ وفى ٦٧٢ فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٥١ وفى ٦٧٤ فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٥١ وكان « ابن الحسن » الإمضاء المستعار الذى كنت أنشر به نناجى شعراً أو نثراً حينذاك .

إن السياسة العالمية قد انتهت من تقسيم العالم إلى قسمين لا ثالث لها ، القسم الشرقى وتعنى به الاتحاد السوفيتى ، والقسم الغربى وتعنى به أمريكا وحليفاتها . أما الكتلة الإسلامية فلا تتحدث عنها إلا أنها تبع لإحدى الكتلتين . ولم ترض السياسة العالمية أن تجعلها قسما ثالثاً ، بل أسقطتها من هذا الحساب . وهى على حق فيما ذهبت إليه — كما هو منطقها — أو كما هو منطق الواقع — لأن كتلتنا لم تثبت جدارتها لأن تكون معسكراً ثالثاً له ما للمعسكرين من قوة تدعو إلى الاحترام .

وكلا المعسكرين الشرقى والغربى عدو لدود للآخر بحكم نظامه الإدارى والاقتصادى ، فالنظام الرأسمالى لا يمكن أن يهادن النظام الشيوعى ، والحكم الأتوقراطى عدو الحكم الديموقراطى ؛ ولا يمكن أن يلتقيا بوجه من الوجوه . وكلا المعسكرين مخلص لفكرته ومبادئه إخلاصاً لا يرده شىء عن التضحية فى سبيل رسوخه وانتشاره بأغلى ما يحرص عليه الإنسان . ولذلك فقد كلا المعسكرين حياة الاستقرار والهدوء حتى صار الناس فى الاتحاد السوفيتى كما قال « فيكتور كرافتشنكو » فى كتابه آثرت الحرية : « يعيشون فى مطحنة ويموتون فى مجزرة » وهو قول لا يصدق على الاتحاد السوفيتى وحده ، لكنه يصدق على الأمم الغربية ، وعلينا أيضاً من حيث الجملة وإن كان من حيث التفصيل يختلف باختلاف نظم الحكم التى تسير عليها كل مجموعة فى فلكها ، لأن الناس ، إما فى حرب أو فى استعداد للحرب ، وكلتا الحياتين حياة الحرب وحياة الاستعداد للحرب لا تدعو للطمأنينة مطلقاً ، وإن كانت الحياة فى الشرق وفى الغرب — كما هى عندنا زاخرة بالمنغصات مكظوظة بالمآسى ، إلا أنها حياة تختلف عن حياتنا اختلافاً بيناً ؛ فهى حياة لفكرة ، حياة واعية عاملة لا تنقصها اليقظة فى جميع مرافقها ، حياة الذين يملكون أمورهم ويعرفون مواضع أقدامهم ولا يتخطون أهدافهم ، ولا يسمحون للغش والخداع والزيف أن يغشى أبصارهم فيعميها عن الغرض الذى يسعون له والفكرة التى يعيشون لأجلها ، ولم يسمحوا لبريق الحياة الزائف أن يلتهمهم كما التهمنا .

***

إن المجموعة الإسلامية تقدر بأكثر من ثلثمائة مليون نسمة تنتشر فى بقعة كبيرة مترامية الأطراف ولهذه البقعة شأن خطير من حيث موقعها الممتاز ، وخصب تربتها ، وغناها بمناجم الفحم ، وآبار الزيت ، وكنوز الذهب والفضة ، وكافة الخامات التى لا تستغنى عنها مطالب الحياة الحديثة بوجه من الوجوه فى زمن السلم وزمن الحرب ، ومع هذا فقد ألغتها السياسة العالمية من حسابها كمعسكر ثالث يخشى خطره ، أو له خطره على الأقل . فلماذا ألغتنا من الحساب ؟ والجواب على هذا السؤال سهل ميسور لوضوحه وبداهته ؛ فمجموعتنا لا تعتنق مبدأ من المبدأين المتطاحنين ، فليس لها روح الحماس الذى يدفع للأخذ بأسباب القوة التى تفرض الاحترام والخشية على الغير . وليست هى متحمسة للدين الذى تحمل اسمه وتزعم أنها من أتباعه ومعتنقيه وأنها صاحبته وحاميته . وكيف تتحمس لدين تجهله جهلاً فاضحاً بالرغم من انتسابها إليه ؟ إن مجموعتنا كما يبدو لنا ، لا تعرف من هذا الدين إلا اسمه ، ولا تفهم من تعاليمه إلا طقوساً كطقوس النصارى ، وإلا رسوماً شكلية لا تغنى فى بناء الأمم فتيلاً .

وإن أى مجموعة فى الدنيا لا تحمل فكرة تعمل لها ولا تتخذ مبدأ تعيش من أجله لا يمكن أن يكون لها فى الحياة خطر أو شأن .

ومثل هذه المجموعة التى افتقدت روح الحماسة لدينها ولم تتحمس لأى شىء آخر ، لا تصلح إلا لأن تساق إلى ميادين القتال دفاعاً عن أى مبدأ من المبادىء التى يدين بها الأقوياء ، من ذوى الحماسة للأفكار والعقائد . فإذا استطاع الاتحاد السوفيتى امتلاكها جندها راغمة للدفاع عن المبدأ الشيوعى ؛ ويصح العكس فيما لو استطاع المعسكر الذى يقابله امتلاكها . وقد استطاع كلا المعسكرين أن يقبض على ناصية الجماعة التى تحاذيه من الكتلة الإسلامية ويسخرها لأهوائه ويقذف بها فى أتون الحرب المشتعلة دفاعاً عن فكرته . ووقف الصينى المسلم والفرغانى المسلم يصوب رصاصه إلى أخيه المغربى المسلم والسنغالى المسلم والسودانى المسلم فى ميادين القتال ، كما رأينا ذلك فى الحربين العالميتين . . وكما رأينا الهنود المسلمين يقمعون الحركات الوطنية المسلمة

فى العراق ، والسنغال المسلمين يقمعون إخوانهم المسلمين فى سوريا ولبنان ليخضعوهم لفرنسا وبريطانيا ، فخطرنا من حيث إننا وقود لحروبهم وجنود لقمع الحركات المعادية لهم غير منكور عند راسمى السياسة العالمية العليا .

* * *

فنحن إذا ادعينا الإسلام فإن كلا المعسكرين — الغربى والشرقى — يعرف مدى ما فى هذا الادعاء من حق وصدق ، فما هو بالجاهل حقيقة دعوانا ، وما هو بالجاهل أيضاً حقيقة ديننا وما ينطوى فيه من نظم وتعاليم . فكلا المعسكرين يعرف الإسلام حق المعرفة ، كما يعرف المسلمين معرفة تامة ؛ فقد كان بين الشرق والغرب من جهة ، والعقيدة الإسلامية وأصحابها الأولين من جهة أخرى ، تاريخ طويل لنضال عنيف استمر أجيالا طويلة . وقد أضنى هذا النضال — الذى لا يكاد ينتهى حتى يبتدىء — الغربيين والشرقيين على السواء . فلمسلمى الشرق مع قياصرة الروس ملاحم عنيفة ما زال التاريخ محتفظاً بها ، ولمسلمى الغرب ملاحم أكثر عنفاً مع أوربا كلها ، ما زالت ذكراها ماثلة فى الأذهان .

وقد رأى الغرب أن يتجه — بعد هذه الملاحم — اتجاهاً آخر لهدم العقيدة الإسلامية فى قلوب معتقديها يكون أسهل منالاً وأبعد أثرا . وكان هذا الاتجاه هو مهاجمة العقيدة فى معاقلها من قلوب المسلمين مهاجمة لينة ولكنها خبيثة فتاكة ؛ وفعلا فقد كانت أفتك من الجيوش الفتاكة التى كانت تساق لقتالنا فى حرد وحقد فى عقر بلادنا أيام الحروب الصليبية الطاحنة . لقد هاجمونا فى تؤدة ، وصبر ، وأناة ، هجوماً ليناً رفيقاً هادئاً بكل طرائق اللين والرقة والهدوء ، حتى استطاعوا قتل الحماسة الدينية فى نفوسنا وإبادتها إبادة ذريعة مفزعة ، فلم يعودوا يخشون سلطانها . وقد أصبحت عودة الحماسة للدين رجعية وجموداً ودعوة إلى الهمجية ، والاستمساك بها استمساكا بالعاديات القديمة التى لا تصلح إلا للعرض فى المعارض والمتاحف ، وصارت أصوات القائلين بالعودة إلى الإسلام أقوالاً لا تصلح إلا لأن تتبدد فى الهواء .

لقد عمد الغربيون إلى الدعائم الأولى فى الإسلام والتى هى مبعث الحماسة فى القلوب وأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم حتى دكوها فى قلوب أجيال منا ، واستطاعوا أن يستهووا ببريق مدنيتهم جماعة من كل مجتمع إسلامى ويكوّنوا منها طبقة من الحكام والعلماء لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وإلا هذه الأطلال الدارسة من هذه البنايات التى أقيمت تحت ستاره ، وجعلوهم حفظة عليها وسدنة لها ، وأمدوا هذه الطبقة المختارة بكل أسباب القوة وأحاطوها بكل أنواع الإغراء ، وبذلك صرفوا المسلمين عن معاناة البحث عن جوهر الإسلام وروحه ، فاكتفى هؤلاء الحفظة بالاقتصار على اتخاذ القرآن تراتيل وأنغاماً يتغنى بها فى المآتم والأفراح ، وافتتاح الحفلات واختتامها ، وجعلوا مقامات الأولياء وقبور الصالحين محل عنايتهم واهتمامهم ، لتكون هذه الأماكن وما يقام فيها من مراسيم ملهاة تتلهى بها الجماهير المؤمنة بذلك إيماناً تقليدياً ، ولتساق الجموع بهذه المراسيم المحتفى بها إلى حيث يراد لها أن تساق باسم الإسلام وتحت ستاره ، وقالوا : هو هذا الإسلام ، والويل لمن خرج عن ذلك ، ومهدوا للخرافة والأضاليل الطريق لغزو الأفكار والأفئدة ، فاعتنت بالقشور وحظر على المسلمين السلوك فى طريق الحياة الصحيح بالفهم السليم والعقل المتبصر لتعاليم الإسلام الصحيحة ، ومن سلك برغم ذلك الحظر المضروب طريق الصواب وجاهر به رمى بالخروج على الملة والمروق من الدين .

وأمدت الطبقة الحاكمة طبقة العلماء السائرة فى موكب الهدم بكل ما يجعل هؤلاء العلماء فى الطليعة ، والجمهور تخدعه المظاهر ، فصارت الزعامة الروحية ملكا لهم لا تتعداهم إلى غيرهم ودانت لهم المجتمعات حتى ساقوها إلى هذا المصير المحزن .

لقد تآمر هؤلاء العلماء ، وهؤلاء الحكام — أو هكذا يبدو لنا — وما زال يبدو لنا أنهم متآمرون مع أعداء الإسلام الصرحاء فى الشرق والغرب على اغتيال الإسلام واغتيال بنيه ، وقد تم هذا الاغتيال منذ أمد بعيد ، ولم يبق إلا اغتيال بلاده وخيراتها واستصفاء ما فيها استصفاء نهائياً ، واغتيال تلك القلوب التى لم يزل

فيهاشيء من الحنين إلى حياة الإسلام الصحيحة ؛ وها هى ذى بلادنا بفعل هذه الحرب الخبيثة الماكرة آلة تتنازعها أيدى الأقوياء المسيطرين على زمام السياسة العالمية يحركونها كيفما شاء لهم الهوى،وكيفما شاء لهم الطغيان ، ينتقصون من أطرافها،ويعطونها لمن شاءوا ، كيفما شاءوا ، وصرنا فى ديارنا كالحول والأجراء ! أستغفر الله كالأرقاء فى ضيعة كبيرة ، نشقى بالعمل الدائب لسعادة مالك الضيعة ، ولا يهمنا من مالك الضيعة ! لأننا لسنا أصحاب عقيدة تجعلنا نحب ونكره ، ونعمل أو لا نعمل ، وكيف يتسنى لنا أن نهتم بالسؤال عن صاحب الضيعة التى نعمل فيها بعد أن غزت عقولنا الضلالات وقبضت على أعناقنا أيدى التآمر والمؤامرات ؟ وما أشبه حكامنا بالحارس الذى لا يهمه إلا إرضاء من هيأ له العيش الناعم، والكرسى الوثير، والتحكم فى الجماهير تلك هى حالة كتلتنا أو مجموعتنا الإسلامية فى كل بقعة من بقاعها دون أن نستثنى شبراً من هذه البقعة المترامية الأطراف التى تسكنها ؛ ذلك هو موضعنا اليوم من عالم اليوم . . . ولم يبق لنا محل لأن نسأل — بعد هذا السؤال الذى بدأنا به كلمتنا — أين نحن اليوم ؟ .

***

لقد عرفنا مما تقدم أين موضعنا من عالم اليوم . وليس أمامنا إلا الاعتراف بهذا الواقع المر الأليم ، وعدم المكابرة فيما آلت إليه حالتنا من سقوط لهيبتنا ، واستصغار لشأننا ، وإن كان يعز علينا الاعتراف بذلك والمجاهرة به خشية الفضيحة والهوان ، فإن المكابرة لا تغير الحقائق أو تبدل فيها ، بل تزيدنا هوانا على هواننا وفضيحة تضاف إلى سجل فضائحنا الكثيرة ، لأننا نبدو أمام أعيننا وأعين الناس فاقدى الإحساس والتمييز . وتلك مصيبة كبرى لا تبتلى بها إلا الشعوب الميتة .

وعلينا إذ أردنا أن نبعد عن أنفسنا هذه الوصمة ونثبت أننا ما زلنا أحياء أن ننظر إلى أمرنا نظرة جادة مخلصة تلمساً للخلاص من الوهدة التى تردينا فيها والخلاص لا يكون إلا إذا كنا نعيش لفكرة ونحيا من أجلها ونعمل لها ونضحى بكل غال ورخيص فى سبيلها — كما هى حياة الأقوياء من حولنا فى المشرق والمغرب ؛ وأمامنا

فكرة الشيوعية ، وفكرة الديمقراطية الغربية ، وفكرة الإسلام . فلننظر إلى أقرب هذه الفكر الثلاث ، وأسهلها تناولا . ثم بعد إمعان النظر فيها نتخذها عقيدة نجاهد دونها بالنفس والنفيس ، ونحميها بالدماء والأرواح ، متساندين متكاتفين ، بحيث لا ندع فى صفوفنا ثغرة واحدة يتسلل منها الضعف إلينا . . إن كل فكرة من الفكر الثلاث — الشيوعية والديموقراطية والإسلام — لها مقوماتها وتعاليمها كعقيدة لا يمكن لجوهرها أن يتجزأ . وليس من الأصالة فى الرأى أن نأخذ من كل فكرة جزءا لنقيم لنا بناء وثيقاً شامخاً ؛ ذلك لأن البناء الشامخ الوثيق لا يقوم على مواد متنافرة ليس من طبيعتها التلاؤم والاندماج . وأى بناء يستقيم بالترقيع والتلفيق والتنافر بين أجزائه ؟ ؟ . والعقائد لا تصل إلى القلوب ولا تتغلغل فى النفوس إذا لم تنتظم الحياة بكل ألوانها فى نظامها وتعاليمها ، لتكون حياة الأفراد والجماعات منسجمة فى ظواهرها و مظاهرها ودقائقها وجلائلها .

ونحن إذا نظرنا إلى الشيوعية لا نجد فيها ما يستهوينا أو يغرينا بالميل إليها ؛ ذلك لأن قلوبنا وأرواحنا تنبذها نبذها للعار والإثم . ومع ذلك فإنها كفكرة فهى غير واضحة لأنها فكرة غير عملية . وقد وقف القائمون على تنفيذ تعاليمها موقف العاجز عن التطبيق ، وأمام هذا العجز عدلوا عن كثير من تعاليمها إلى تعاليم أخرى . وقد أحدث ذلك تذمراً واستياء بالغين فى نفوس المحكومين على الحاكمين . وأصبحت الجنة الموعودة جحيما يحترق فيه المؤمنون بالشيوعية قبل الكافرين فى الاتحاد السوفيتى نفسه .

أما فكرة الديموقراطية ، فهى على ما فيها من خلابة مغرية فقد صحبناها وخبرناها مدة غير قصيرة . وقد انصرفت نفوسنا عنها وامتلأت قلوبنا حقداً وموجدة عليها ، لأننا وجدناها منافقة تخفى تحت خلابتها المغرية خداعاً قتالاً فى ضعفها ، وجبروتاً و بطشاً عند قوتها ، فهى كاذبة فاجرة داعرة لا ضمير لها ولا عهد ولا ذمة ؛ تدعى حب الإنسانية ، وحب المساواة والعدالة ، ولكنها عند اقتضاء ذلك منها لا تضع

الناس فى ميزان واحد ، و إنما هى ذات موازين مختلفة ؛ فالجنس الأبيض هو الجنس المفضل فى منطقها ، وهو الذى يجب أن يسود وأن يتحكم ؛ أما الأجناس الملونة فهى لا تستحق الحياة إلا إذا كانت مربوطة فى عجلتها كما يربط أى حيوان أعجم بالمركبات والمحاريث ، وما عليها بعد ذلك أن تتهم النازية بهذا الخلق فى الوقت الذى تصنع فيه صنيع النازية ؛ وتسوقنا لمحاربتها . وفى جنوب إفريقيا يظهر هذا الخلق فى أبين مظاهره وأبشعها ، وزنوج أمريكا وهنودها شهود على مبلغ ما ينالهم من عدالة هذه الديموقراطية وإنسانيتها ؛ وللمرتادين أوربا من الأجناس الملونة قصص وحكايات تدل على مبلغ ما وصلت إليه الإنسانية الديموقراطية من التدلى والانحطاط اللذين يبدوان كمظهر من مظاهر الاعتزاز والاستكبار اللذين تمتلئ بهما قلوب البيض الديموقراطيين .

وليست هذه الأعمال أعمالاً فردية يقوم بها الأفراد فيسيئون بها إلى سمعة الديموقراطية ، ولكن الديموقراطية تشرع هذه الأعمال فى أنظمتها وقوانينها ، وهى مطمئنة القلب مرتاحة الضمير ، مقتنعة الشعور بأن ما تأتيه عمل فاضل لا غبار عليه من نقص أو نقيصة ، فالقانون يعاقب الرجل الأبيض إذا عامل الهندى معاملة المثل بالمثل ، وقاتل الهندى الأحمر والزنجى الأسود فى أمريكا لا يقع تحت طائلة القانون ؛ وليس أبين بيانا من إباحة الديموقراطية لاغتيال الشعوب ، فإن ذلك لا يحتاج إلى دليل أو برهان ، بل هو حقيقة ماثلة أمام أعيننا بأبشع ما تمثل به الحقائق الكريهة للعيان ، فلا أظن أن نفوسنا بعد هذا تقبل على فكرة الديموقراطية الغربية راضية مختارة ، وإذا أرغمناها على قبولها فإنما نكون ذَنَباً فى جسم موبوء ، وما هى الدواعى أو المغريات التى تحملنا على أن نختار مكان الذنب ونضع أنفسنا فيه مرغمين ؟ .

لقد كنا رءوساً وأقمنا حضارة ، وإن لنا تراثاً ، وليس فى طبعنا استخذاء أو تواكل ، ولا ينقصنا الفهم وحسن التدبير ، ولا نشكو من قلة فى العدد ، أو جدب فى الأرض أو ضيق فى المساحة ، وكل ما تحتاجه الأمم لبناء دولتها موفور بصورة لم تتوفر لأحد بمثل ما توفرت لنا .

والديمقراطية كفكرة مجافية لطبائعنا ، لأنها فكرة مادية بحتة لا مجال فيها لروحانية الشرق ؛ فليس فيها تسامح عند القدرة ، وليس عندها عفة عند الغنيمة ، وليس لها وفاء بالعهد ؛ بل ربما تعد كل ذلك من تخريف المخرفين ، وأوهام الحالمين التى تنافى مقتضيات الحياة على وجه الأرض ، وقد تجد الفكرة المادية مجالاً أو مرتعاً خصيباً تنمو فيه وتثمر إذا كانت فى الغرب ؛ ولكنها لا تجد مثل ذلك المجال فى الشرق ، لأن الشرق ألف تربية الأديان السماوية وتهذيبها ، ولم يسبق له فى تاريخه الطويل أن بنى حياته على الفكرة الفلسفية المجردة ، ولم يكن للشرق كيان أو شخصية إلا بالدين ؛ ومن ألف تربية الأديان من العسير عليه أن يتحول إلى تربية لا تلائم طبائع الأشياء فيه ؛ وحينما أنزل الله كتابه وبعث نبيه لم يغفل عن تذكير العرب بأن ما يدعوهم إليه إنما هو ملة أبيهم « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » .

فلم يكن الإسلام شيئاً جديداً عليهم لم تعرفه آباؤهم وأجدادهم ، وإنما هو شيء عرفه أسلافهم ودانوا به . وقد اتخذ أسلافنا الإسلام عقيدة جاهدوا فى سبيلها وعاشوا لها فنجحوا فى حياتهم نجاحاً باهراً .

لكل ذلك فإن فكرة الإسلام والعودة إليها هى الفكرة الوحيدة التى لا يمكن أن تنقبض نفوسنا منها، أو نرى فى طبعنا جَنَفاً عنها ، وهى فكرة واضحة لأنها عملية قد حققها المخلصون لها وجعلوها شيئاً ملموساً فترة طويلة من الزمان .

فهى جديرة منا بنظرة فاحصة وفطنة متعمقه . وأقول نظرة فاحصة وفكرة متعمقة لأن الإسلام منى بأناس باعدوا بين الناس وبين ما فيه من إشراق وسماحة . وهو الآن تحت ركام من الأغراض الدنيئة ، والأفهام السقيمة ، يجب أن ينقذ منها ليبين واضحاً جلياً للعقول والأنظار .

قد تحس بعض النفوس المسلمة وغير المسلمة فى داخلها بالنفور من الإسلام كلما ذكرت الدعوة إلى الإسلام . وقد يدفعها ذلك الإحساس لمحاربة الإسلام ، وتجنيد القوى المادية والأدبية لمحاربته . وأخذ الداعين إليه بكل أنواع العنف والقسوة .

ولذلك نرى فى المجتمعات الإسلامية مآسى دامية تتفطر لهـا القلوب أسى و..نا نزلت بكل نبتة إسلامية قبل أن تؤتى ثمارها الطيبة ، بل قبل أن تشتد ساقها ؛ والقاءور بكبرى هذه المآسى من الذين ينتسبون للإسلام و يعتقدونه . . . و يتخذ هؤلاء الذين يئدون هذه النبتات الطيبة قبل اشتداد عودها مبررات شتى يبررون بها شدتهم وقسوتهم . ولسنا بصدد تفنيد هذه المبررات ، ولـكننا بصدد البحث عن علة هذه الظاهرة فى مجتمعاتنا . . . فما الذى يؤلب قوى الشر كلها على الجماعات الإسلامية التى تنبت فى المجتمعات لإصلاحها إصلاحاً يرتـكز على العقيدة التى لا يمكن لبناء الأمم والشعوب أن يقوم بدونها ؟ ؟

إن السبب الصحيح — على ما يبدو لى — لا يكمن فى الحقد على تلك الجماعات و إنما هو كامِنٌ فى الحقد على الإسلام نفسه متمثلا فى تلك الجماعات . فالدعايات المنظمة ضد الإسلام التى تثيرها أوربا وترصد لها الأموال والرجال بكرم وسخاء ، ودسائسها الخفية التى تدسها دساً متقناً فى آدابها وعلومها ، والقوة العلمية والعقلية التى امتاز بها الغربيون أخيراً ، وانتشار النفوذ والسلطان و إتقان فن الحياة فى حالتى السلم والحرب ، كل ذلك عمل عمله فى النفوس والأفكار، حتى تزعزع موضع الإيمان من قلوبنا. وما كان لهذا الإيمان أن يتزعزع لولا أن هناك ما هو أهم من ذلك ، وهو الذى مهد لهذا الغزو القتال الفاتك طريقه إلى مكمن العقيدة . لقد أطل الإسلام علينا بعد عصوره الأولى بصورة لا يمكن أن تهش لها النفوس ، وليس فيه ما يغرى على الاستمساك به كدين ودولة ، لأننا رأيناه فى صورة طواغيت مستبدة تئد الحرية وتحتكر الفكر ، وتتحكم فى الضمائر ، وتسفك الدماء البريئة ، وترتـكب أشنع أنواع المظالم ، و إذا قيل لها اتق الله أخذتها العزة بالإثم . وأطل علينا فى صورة دويلات هزيلة تقوم هنا وهناك ترتـكز على النعرات الطائفية أو الإقليمية المقيتة ، وتؤجج نار الأحقاد والضغائن بين أبناء الملة الواحدة ، أو الوطن الواحد بأعمالها وتصرفاتها . وأطل علينا فى صورة أشخاص يظهرون بمظهر المحتضن للدين الذاب عنه القائم عليه ، و يجعلون وجه الحياة أسود قاتماً

وآفاقها ضيقة قاتلة تحت ظلالهم . . . وأطل علينا فى صورة طرائق صوفية تصرف الناس عن الحياة ، ولا تعنى بشئونها ، وتغمس أتباعها فى لجة سحيقة من الشطحات والأوهام والأحلام المنافية لحكمة وجود الإنسان على وجه الأرض . وأطل علينا فى صورة مؤلفات صفراء تطمس العقول وتأكل الأعمار دون أن تفيد فى الحياة والأحياء بشىء ينفعهم . وأطل علينا فى صورة تكايا وأربطة تغص بجموع الكسالى والمتبطلين يزيدون المجتمع أثقالا على أثقاله بالإنفاق عليهم ، بحجة أنهم صلحاء المسلمين وخيارهم . وأطل علينا فى صورة علماء ضيقى الصدور والعقول واسعى الأردان والعمائم متزمتى السيرة والأخلاق ، لا يبالون أن يحكموا بالكفر على كل مخالف لهم . ولم تزل فى مجتمعاتنا من هؤلاء بقايا يحرمون علوم المنطق والفلسفة والجغرافيا والفلك والكيمياء والتشريح والرسم والنحت والتصوير والموسيقا والشعر . وأطل علينا فى صورة جدل مذهبى عقيم لولا ما ينتجه من المباعدة بين الناس وما يصلحهم . وأطل علينا بصور عديدة كثيرة كلها تجعل الحياة جحيما لا يطاق ؛ فليس بدعاً — بعد هذا كله — أن يتسلل الشعور بالنفرة إلى بعض القلوب إذا ما ذكر الإسلام أو ذكرت الدعوة إليه ، وليس بدعا بالتالى أن تنمو بذور الحقد والكراهية على الجماعات التى تنادى بالعودة إليه . . . وليس بدعا أن يكون لعمل الدعايات والدسائس المضادة للاسلام تأثيرها البالغ فينا .

وليس بدعاً أن يقوم بيننا فريق يدعو إلى فصل الدين عن الدولة مقلداً فى ذلك أوربا حينما فصلت الكنيسة عن الدولة ومتأسياً بها ، وليس بدعاً أن يقوم بعض العلماء السطحيين من المسلمين ، ويؤلفون — مساندة لذلك الرأى — مؤلفات ، تجد رواجاً وتحدث ضجة . وليس بدعاً أن يجد دعاة المذاهب الغربية والشرقية المختلفة بيننا محبذين ومروجين لدعوتهم ودعاياتهم . وليس بدعاً أن تنجم فى مجتمعاتنا ظواهر مخيفة مزعجة كالاغتيالات وما يعقب هذه الاغتيالات من فجائع مدمرة . . . إن كل أولئك معاول هدامة مسلطة علينا من الداخل والخارج . ونحن فى حلبة هذا الهدم المروع مدفوعين

تحت الغبار والأنقاض ، وإن كنا نسير فإنما هو سير الذاهل الذى لا يعرف لسيره وجهة معينة ، مع أننا إذا رجعنا إلى منابع الإسلام الأولى وأزلنا ما حولها من ركام تكاثف عليها بمرور العصور المظلمة والأجيال المنحرفة ، فإننا نجده من البساطة والوضوح والإشراق بحيث لا تجد فيه النفوس ما يصدمها أو يصرفها عن الإقبال عليه والإخلاص له ، فضلا عن الحقد والكراهية وتأليب القوى لمناهضته .

وهنا يجمل بنا أن نستعرض خطوط الإسلام الأولية التى رسمها ابناء دولته ومجتمعاته .

وأول ما يجب أن نعرفه عن الإسلام أنه دين الفطرة ، والفطرة فى التعبير الحديث الطبيعة ، ولا يمكن للفطرة أن يكون دينها مضاداً لها فى شىء ، أو تكون تعاليمه مناقضة لطبائع الأشياء ، بحيث تكون تعاليم غير عملية أو غير قابلة للتنفيذ إلّا بإرهاقها وتحميلها ما ليس فى طاقتها ووسعها .

وللإنسان فى تكوينه استعداد جعله أكرم ما فى الطبيعة من كائنات حية . ولا يستقيم فى العقل أن تأتى الفطرة بدين غايته تحطيم هذا المخلوق الكريم بالاعتساف والإرهاق ؛ لأن الإسلام يعترف بهذه الكرامة : « ولقد كرمنا بنى آدم » . ومن هنا نعرف أن الإنسان ليس شيئاً تافهاً فى الإسلام ؛ وبمعرفتنا هذه الحقيقة الأساسية نستطيع أن نعرف التعاليم الإسلامية معرفة لا تتجافى مع هذه الحقيقة فى شىء ، وما تجافى معها نستطيع بسهولة أن نتبين زيفه أو عدم أصالته فى الإسلام ، ونستطيع أن نعرف أنه من الأشياء الدخيلة على دين الفطرة الذى يكرم الإنسان ولا يعتده شيئاً تافهاً .

وحقيقة أخرى يجب أن نلم بها قبل أن يلتهمنا الحديث عن الخطوط الأولية التى رسمها الإسلام لبناء دولته وسياسة مجتمعاته ؛ هذه الحقيقة هى أن للإنسان عقلا يفكر وللتفكير أثره البالغ فى وجدان الإنسان ، والوجدان القلق الثائر المضطرب عديم الجدوى لا يستطيع أن ينتفع بأطايب الحياة ، ولا يستطيع أن يؤدى رسالته فى الحياة

على الوجه المطلوب . والفطرة تواقة إلى الطمأنينة الوجدانية ، لتنصرف طاقة الإنسان إلى كل ما هو مجد ونافع ؛ فكان الإيمان من أولى الواجبات فى الإسلام ؛ و إذا امتلأ الوجدان بالإيمان اقتلع الشك والحيرة والخواء من النفس الإنسانية ، واقتلع إلى جانب ذلك كل ما تزخر به النفس من أوهام ومخاوف وخرافات وأضاليل ووساوس تبدد الطاقة ، وتشوب التفكير السليم والفهم الناصع بالعوج والتعكير ؛ وليس معنى هذا أن الإيمان يصادر التفكير أو يقف به عند حد ، لا بل يجعل من هذا الإيمان نقطة ارتكاز يستند عليها التفكير ليؤدى إلى نتيجة تدفع إلى العمل والتحمس له . أما التفكير الذى لا يبنى على قاعدة فهو لا ينتهى إلى شىء دائماً ، ولذلك نجد كل تفكير أدى إلى نتيجة كان مرتكزاً على قاعدة ولو فرضاً . والتفكير عند الإسلام لا يبنى على الفروض والتخمينات ، ولكنه يبنى على إيمان جازم لتكون نتائجه غير قابلة للشك الذى لا نهاية له ولا نفع فيه .

لقد اضطر أفلاطون لبناء مدينته الأفلاطونية الفاضلة أن يبنى تفكيره على خرافة حتى يستقيم له البناء المنطقى ، فكانت مدينته مدينة خرافية غير عملية ؛ ولذلك لم تتحقق فى عصر من العصور . ولكن الإسلام لا يلجأ إلى الخرافات فى إقامة بنائه ؛ ولذلك قامت دولته الفاضلة ردحاً من الزمان أضاء بها تاريخ الإنسانية إضاءة وهاجة غير منكورة ، وما زالت تلك الأضواء واضحة الأشعة تنير لنا الطريق وتجذبنا بقوة إلى سلوكها . . .

والآن يحسن بنا أن نتكلم عن الخطوط الأولية فى الإسلام .

فنحن إذا نظرنا إلى الإنسانية وجدناها شقية بمشاكلها . فإذا نظرنا إلى البؤرة التى تنبع منها هذه المشاكل وجدناها كامنة فى النفس الإنسانية ذاتها . فعمل الإسلام على تطهير هذه النفس وتهذيبها وتربية الضمير فيها ، بمراقبة الله تعالى والخشية منه فى السر والجهر . قال تعالى : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

ثم جعل الحب ، حب الإنسان لأخيه الإنسان الدعامة الأولى التى ترتكز عليها جميع الحلول الصالحة لمشاكله ؛ فيقول الرسول الكريم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أو كما قال .

و بعد أن يهذب النفس الإنسانية و يطهرها و يدعوها للحب و يغريها به يعرفها بأن الناس — كل الناس — سواء « كلكم لآدم وآدم من تراب » لا فرق بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، و بذلك تمحى العنصرية والإقليمية والقبلية بين الناس . ولا يكون الأكرم بين الناس ذا الحسب والنسب ، وذا الثراء والعصبية ، وذا الحكم والسلطان ، و إنما الأكرم عند الله من يتقى الله فى خلقه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و بذلك يقضى الإسلام على أكبر جرثومة من جرائيم الشر التى تسبب للانسانية معظم ما هى فيه من شقاء . و بطبيعة الحال بعد أن تتهذب النفس الإنسانية وترقب الله فى السر والعلن ، وتشرق جوانبها بحب الإنسانية وتمحى منها الفوارق العنصرية والإقليمية والقبلية تكون مستعدة لتقبل المساواة المطلقة بين جميع الناس فى الحقوق والواجبات . فأقام الحكم على أساس من الشورى . فالشورى تمنع إلى حد كبير الوقوع فى الأخطاء ، و إذا وقعت الأخطاء فإن الشورى كفيلة بعدم تكررها ، ومنع الإسلام احتكار الأرزاق ومصادرها أياً كان نوع تلك الأرزاق وأياً كان نوع مصادرها ، ومنع اكتناز الأموال ، لأن الاحتكار والاكتناز من أكبر الشرور التى تصاب بها المجتمعات الإنسانية ، فمنها ينتشر الجوع والعرى والحرمان والبؤس ، وتنتشر تبعاً لذلك الجرائم والشرور والمفاسد بكل أنواعها فى المجتمعات الإنسانية ، كما ينتشر الترف والانحلال والتدهور الخلقى فى فئة المحتكرين والمكتنزين . وتنشأ فى المجتمعات التى ينعدم التوازن فيها والتقارب بين أبنائها فى المعيشة مهن دنيئة « كالقِوادة » والدياثة واحتراف الدعارة ، و يتبلد الإحساس بها فلا تشعر بشرف ولا بكرامة ، بل ولا ترى فيما تأتيه منكراً أو انحرافاً .

والإسلام يحرص على أن لا تقع الإنسانية فى مثل هذا الانحلال والتفكك .

لأن أى مجتمع يقع فى ذلك فإنه ينصرف عن جد الحياة إلى هزلها ، ولا يرى أنه فى حاجة إلى علم أو معرفة أو قوة أو أن عليه رسالة .

ثم إذا خلص الإسلام بتشريعاته ومبادئه النفس الإنسانية من كل ذلك . يدعوها إلى العلم واكتشاف الأسرار الكونية التى تحيط به . وقد أودع الله فى الإنسان جرثومة العلم ، « وعلم آدم الأسماء كلها » وأمره بتنميتها ليرى الآيات والمكنونات والمدخرات التى إذا علم أمرها واكتشف سرها يصبح خليفة الله فى أرضه و يسخرها لنفعه وسعادته و يطوى بها الإبعاد و يهيمن على الأرض وما حولها ، ويأمن بقدر الإمكان كثيراً من جوائح الطبيعة وكوارثها ليعيش على الأرض السيد المهيمن عليها فى دعة وأمن واطمئنان .

تلك هى الخطوط الأولى التى وضعها الإسلام لسلامة البشرية وصلاحها و إبعادها عن الشرور والمشاكل .

فهل فى هذه الخطوط ما يمنع الإنسان أى إنسان — عن تعشقها والعمل على تحقيقها ؟ .

لاشك أن كثيراً من الأمم انحدرت إليها عداوة تقليدية للاسلام وللداعين إلى الإسلام الحق . فعلينا نحن المسلمين .. أن نتفهم ديننا لأن المسؤولية تقع علينا قبل أن تقع على غيرنا . لأننا نؤمن به ونعتقده ونود أن تشيع تعاليمه السمحة على الإنسانية بأجمعها . ولكننا بعد أن ألصقنا أعمالنا التى هى بعيدة عن الإسلام وروحه بعد السماء عن الأرض بالإسلام قدمناه فى صورة لا ترتاح إليه أنفس الجاهلين به . وللذين يتهمون الإسلام بأنه دين الجمود والتعصب ، ودين القتل وسفك الدماء ، بعض العذر فى هذا الاتهام لأنهم حكموا عليه هذا الحكم بما يرونه من أبنائه . فإذا أردنا أن نرد هذا الاتهام فعلينا أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا من هذه الحالة المزرية وعلينا أن نتفهم روح الإسلام فى تشريعاته وآدابه ، وأوامره ونواهيه ، ونستجلى الحكمة التى أرادها الله من وراء تشريعاته الإلهية السامية ، ونجعل من أعمالنا مرآة صافية ترى فيها روح الإسلام على حقيقتها و بذلك نستطيع أن نكون الكتلة الثالثة التى

تقف شامخة مشرقة أمام الـكتلتين العاتيتين اللتين تتنازعان علينا وتريدان القضاء على البشرية بما تثيرانه من عدوان آثم وحروب مدمرة .

ونحن إذا ضربنا المثل الأعلى فى بيان روح الإسلام قولا وعملا نصل إلى مايريده الإسلام منا من إقامة الوحدة العالمية الـكبرى لينصرف الإنسان إلى استجلاء غوامض الـكون التى ما زال الـكثير منها غامضاً على بنى الإنسان .

ولست فى حاجة إلى أن أبين أين نحن الآن ؟ فنحن الآن لسنا فى العير ولا فى النفير ، كما يقول المثل العربى القديم . وما جعلنا كذلك إلا لأننا لا نتحمس لعقيدة ، ولا نعيش لمبدأ ، ولا نسير على جادة واضحة .

* * *

فإلى أن نفهم الإسلام روحه فهما جيداً ، ونعمل على تطبيق مبادئه فى حياتنا نستطيع أن نجلس فى الموضع المعد لنا ونكون الأمة الوسط كما جعلنا الله ، ونصير الـكتلة الثالثة التى تقف بين المشرق والمغرب وقفة قوية شامخة . ولقد بدت فى الأفق إرهاصات تجعلنا نتفاءل ونستبشر بمستقبل أمتنا فقيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ٥٢ فى مصر صححت كثيراً من الأخطاء . واحدثت تعديلا كبيراً فى الأوضاع والأفـكار . فإلغاء النظام الملـكى ، و إلغاء الألقاب ومحو الأقطاع الذى هو أفظع أنواع الاحتكار — والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية والعناية بمرافق البلاد والالتفات إلى استغلال ثرواتها المهملة كل ذلك يتفق مع روح الإسلام بل هو المفهوم الصحيح للإسلام . ثم انعقاد مؤتمر باندونج وما أسفر عنه ذلك الاجتماع من قرارات فيها ضمان لحقوق الإنسان وعدم إقرار الاستعمار وإعطاء كل شعب الحق فى اختيار مصيره يتفق مع روح الإسلام بل إن الإسلام يدعو لذلك . ثم دعوة مصر بلسان الرئيس جمال عبد الناصر إلى عقد مؤتمر إسلامى فى مكة سنويا يدل على فهم عميق للحكمة الإلهية التى من أجلها فرض الحج فى الإسلام . كل أولئك إرهاصات تدلنا على أن العالم الإسلامى بدأ يفهم الإسلام على حقيقته — و بدأ يتحلى عن الأفـكار المتعفنة التى كانت تهيمن على حياة المسلمين . وهذا يجعلنا نتفاءل بأن المستقبل لأمتنا . فعلى الواقفين من هذه الأشياء موقف الجمود أن يلقوا بجمودهم خلف ظهورهم وأن لا يعيقوا الركب عن سيره الحثيث ، وأن يعملوا مع العاملين .

سمعة الإسلام (*)

إن من نعمة الله علينا أن جعل لنا حرماً آمنا . و بيتاً عتيقاً . وأمرنا بالاجتماع فيه كل سنة . لنؤكد وحدتنا أمام الكعبة التى هى رمز الوحدة وتتناصح فيما بيننا آمنين فى ظل الحرم الآمن .

إن الأمور التعبدية فى الإسلام . ليست صوراً شكلية خالية من الروح بل إن كل أمر تعبدى فى الإسلام ينطوى على حكمة الـهية سامية . نجنى من ورائها نفعاً عميا فى أمور ديننا ودنيانا . فإذا لم نعرف للنعمة حقها ، وللحكمة معناها ، ذهبت جهودنا ومتاعبنا فى العبادات أدراج الرياح لأن الله لا يريد من عبادتنا نفعاً له فهو جلت أسماؤه لا تفيده العبادة ولا تضره المعصية . وهو غنى عن العالمين .

إن حجنا إلى بيت الله المعظم وزيارة مسجد رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم واجتماعنا فى رحاب الله الفسيحة هذا الاجتماع ، الذى جمع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها فى صعيد واحد . وقد تنزهوا من كل شارة تباعد بينهم . فهم جميعاً فى عرفة حفاة عراة . يبتهلون إلى الله فى صدق وحرارة هـذا الاجتماع على هذه الصورة رمز للمساواة المطلقة بين الناس جميعا أمام أوامر الله ونواهيه . و إن من أهم ما يجب أن نعنى به وقد جمعت بيننا هذه البقعة المقدسة ، وهيمنت علينا هذه الروح السامية . أن نحرص على سمعة ديننا . وسلامة مجتمعاتنا من كل ما يشينها . وكما تجردنا من المحيط والمخيط ساعة إحرامنا . يجب أن نتجرد من الشهوات والنزوات عند عودة كل منا إلى بلاده . وأن يكون الحج وما ينتظمنا فيه من تعاون وثيق فيما بيننا . واتجاه صادق إلى خالقنا وحرص على أداء هذه الشعائر فى أوقاتها وأماكنها . درساً لنا . نتذاكره ونذكره . عند كل عمل من أعمالنا اليومية فيما بقى من حياتنا .

(*) أذيعت هذه الكلمة من راديو مكة سنة ١٣٧١ . وقد زيد عليها وحذف منها أثناء إعدادها للطبع .

أنتم تعلمون — أيها السادة — أن سمعة إسلامنا قد ساءت . وأصبح الإسلام السمح يتهم بالجمود والتعصب، و يوصم بالانحطاط والتأخر . وما كان للإسلام أن يتهم بتلك التهمة ، ولا أن يوصم بتلك الوصمة ، لولا أن كثيراً من أوهامنا وأغراضنا، وأهوائنا لصقت به حتى حسبت منه . فقدمنى الإسلام فى كل مجتمع من مجتمعاته بجماعات تنتمى إلى الإسلام . وتعمل باسمه أعمالا يبرأ منها الإسلام . فمن تلك الجماعات جماعات قصروا تعاليم الاسلام على المظاهر التعبدية . فهم يقيمون الصلاة فى أوقاتها و ينظمون أورادا صباحية ومسائية ، و يحجون إلى الأضرحة حجهم لبيت الله ومسجد رسوله . ولكنهم لا يتخلقون بأخلاق القرآن ، ولا يتأدبون بآداب الإسلام فى أقوالهم وفى أعمالهم . فلا يصدقون فى قول ، ولا يوفون بوعد . ولا يجهرون بحق . ولا يستمعون إلى نصيحة . ولا يحفلون بعلم ولا يحسنون عملا .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ، و يصومون رمضان ، و يحجون البيت الحرام ، ولكنهم لا يؤدون الزكاة أو يحتالون فى أدائها .

ومن الجماعات جماعات يصومون رمضان و يقيمون الصلاة . و يؤتون الزكاة و يحجون البيت ، ولكنهم يجمعون أموالهم من الربا ، والرشوة ، وأكل أموال اليتامى ومن الاختلاس ، ومن أكل أموال الناس بالباطل .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة و يصومون رمضان ، و يحجون البيت و يقرءون القرآن . ولكنهم لا يغيثون ملهوفاً ، ولا يطعمون جائعاً ، ولا يكسون عارياً ، ولا يعالجون مريضا ، ولا يعرفون شيئا من القيم الإسلامية السامية .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ، و يؤتون الزكاة ، و يصومون رمضان ، و يحجون البيت . ولكن يحاربون العلم والعلماء . ولا يستمعون إلى نصيحة ولا ينصتون لحجة ولا ينصاعون لحق ، و يحرمون ما شاء لهم أن يحرموه ، و يحلون ما شاء لهم أن يحلوه .

ومن الجماعات جماعات يرون آراءهم ديناً يجب أن يتبع . وأشخاصهم آلهة يجب أن تعبد ، ولا يحبون أن يراجعوا فى أمر . ولا يستمعون إلى ناصح . ولا يتورعون عن مأثم ، ولا ينصفون مظلوما .

ومن الجماعات جماعات يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان ويحجون البيت ، ويقرأون القرآن ، ولكنهم لا يعرفون من الإسلام غير إقامة الحدود ، ولا يعرفون متى يجب تطبيق الحدود ؟ فهم يطبقون حدود الإسلام ولكنهم لا يؤدون التزامات الإسلام ويعاقبون المجرم وهم وشركاءه فى الجريمة .

ومن الجماعات ، جماعات ، وجماعات الخ . هذه الجماعات المنتشرة فى المجتمعات الإسلامية هى التى شوهت سمعة الإسلام ، وجعلت المسلمين فى مؤخرة الأمم يفتك بهم الجوع ، والمرض ، والفقر ، والعرى ، والجهل ، وتمتلىء نفوسهم بالذلة ويحيط بهم الهوان من كل جانب .

ولصقت كل هذه المزريات بالإسلام والإسلام منها برىء .

* * *

فإن كنا جئنا حقاً فارين من ذنوبنا ، وآثامنا ، نادمين على ما فرط منا من سيئات ، ضارعين إلى الله فى ظل البيت العتيق ، متأثرين بأمر الله ونهيه ، حريصين على اتباع كتابه ، وهدى رسوله . . إن كنا جئنا لتصفية نفوسنا من الرنق وتطهير قلوبنا من الرجس ، إن كنا جئنا لذلك فى إيمان واصرار ، فعلينا أن نعمل على أن نعيد للاسلام جلاله ، وجماله ، باستجلاء الحكمة المنطوية فى الأمور التعبيدية ، وحمل أنفسنا على اتباعها ، وتطبيقها فى كل صغير وكبير من شؤوننا ، حتى يعود بناء الإسلام بناء قوياً ثابتاً فى نفوسنا . وأن لا نسمح للهوى أن يقودنا ـ كالعبيد ـ لأسره ، ولا للشهوة أن تهيمن علينا ، ولا للأثرة أن تنتزع منا خير ما فى نفوسنا ، وأن نتعاهد أمام بيت الله على اتباع أوامر الله ، فلا نجبن عن قول الحق ، ولا نحيد عن الجادة . وأن نتحاب فى الله ، وأن نتق الله فى أنفسنا ، وفى أموالنا ، وفى أعراضنا وفى دمائنا ، وأن

نحب للناس كما نحب لأنفسنا ، وأن نتضافر على تصحيح الأخطاء ، واصلاح الموازين وتصفية المعانى العالية مما شابها ، وأن لا نغتال غافلا ، ولا نخلس حقاً ، ولا نمارى فى باطل ، وأن لا نخون فى أمانة ، ولا نخيس بعهد ، ولا نغدر بمعاهد ، ولا نخوف آمنا ولا نبطش بضعيف ، ولا نسكت على منكر ، ولا ننهى عن شيء ونأتيه ، ولا نتعصب لرأى قد يقابله خير منه ، ولا نميل إلى لجاجه ، وأن لا نقول لمجرد القول وإلا كنا محل المقت من الله « يا أيها الذين آمنوا كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ولتسبق أعمالُنا أقوالَنا .

أيها المستمعون :

إن الإسلام يناشدكم الله وأنتم فى بلد الله ، ويبعث صوته من كعبة الله ، إلى المؤمنين بالله أن ترعوا الله فيه ، وأن تخلِّصوه من الوصمة التى وصم بها ، من كل ما لم يأمر به ولم يدع إليه ، وأن تكونوا نماذج إنسانية مشرفة ، تليق بمن ينتسب إلى دين الله ، هذا الدين السمح الحنيف الذى أنقذنا الله به من الضلالة ، والجهالة . هذا الدين الذى ألف بين قلوبنا ، ووجهنا لوجهة الخير والحق والجمال والقوة .

أيها المستمعون : إننا بجهلنا ديننا ، وبتهاوننا فى أمورنا ، وتعلقنا بالقشور وجبننا عن مقابلة الحقائق ، وصدوفنا عن الجادة ، صرنا كالقصعة تداعى عليها الأكلة ، فقد تداعت علينا الأمم . وقد وجد أعداؤنا الثغرة التى نفذوا منها إلى مقاتلنا ، فاستعمروا كثيراً من بلادنا ، واقتنصوا جزءاً منها ، وأعطوه لشذاذ الآفاق ، وأقاموا لهم دولة تلك هى دولة إسرائيل فى صميم بلادنا ، وما كان للمسلمين أن يرضوا بذلك لولا أنهم تفرقوا شيعاً ، بعضهم يتجه إلى المشرق ، وبعضهم يتجه إلى المغرب ، وتالله أن خلاصنا لا يرجى من مشرق ولا من مغرب ، وان خلاصنا رهن بأيدينا ، ولكنا جهلنا أنفسنا ، وجهلنا ديننا ، وتركنا كل أسباب القوة ، ورحنا نتخبط فى دياجير الظلمة ، حتى أطبق علينا العدو من كل جانب ، خذوا أيها المسلمون بأسباب القوة ، فالقوة تكمن فى العدل ، والقوة تكمن فى العلم ، والقوة تكمن فى الحرية ، والقوة تكمن فى الخلق ، والقوة

فى الاتحاد والقوة تكمن فى التفكير ، وكل ذلك دعانا إليه الإسلام ، والإسلام هو الإسلام لم يتغير ولم يتبدل ، والقرآن هو القرآن ، ولكن قارئه اليوم غير قارئه بالأمس ، ومسلم الحاضر غير مسلم الماضى ، لقد بلغ الخلفاء الراشدون والصحابة الأولون بالقرآن حينما كانوا يتلونه و يستجلون معانيه ويطبقونها تطبيقا عمليا من العزة والسؤدد ، مالم تبلغه أمة من الأمم ، كانوا هم المعانى القرآنية تسير على الأرض وتحقق ما أراده الله من عباده المؤمنين . فوهبهم الله مجد الحياة وحسن ثواب الآخرة .

فهل لنا أن نعاهد الله فى رحابه المقدسة ، على أن نعمل على محو الصفحات المظلمة من سجل حياتنا ، ونستبدلها بصفحات مشرقة تخرج على ضوئها مجتمعاتنا من حياة الشقاء والذل والعبودية ، إلى حياة السعادة والعز والحرية ؟

إن الإجابة تتوقف على مبلغ إخلاصكم للإسلام ومدى حرصكم على سمعته .

الإسلام دين العمل (*)

أيها السادة: الآن وقد أتممتم مناسككم، وأديتم فرائضكم، وأرضيتم ضمائركم حيال ركن من أركان الإسلام، وتأهبتم لزيارة نبيكم، ثم العودة إلى بلادكم، لا شك أنكم تأثرتم من رحلتكم الروحية السامية التي ما رجوتم من ورائها نفعاً مادياً، ولا حطاماً زائلا ولا عرضاً من أعراض الحياة الفانية، وحملتم مع الهدايا الجميلة التي تذكركم بهذا البلد، ذكريات أجمل تلك هي ذكريات المشاهد الإسلامية الرائعة في ساحة الله الكبرى، لقد رأيتم هنا في حرم الله ومسجد رسوله. الناس كلهم سواسية... الراعي بجانب الرعية، والخادم بجوار المخدوم. لا يتميز هذا عن هذا بلباس فاخر، أو أثاث فخم أو دار أنيقة، رأيتم الناس كلهم عراة حفاة، متحابين في الله لا تفرق بينهم الجنسيات، ولا العناصر ولا اللغات. الكل يعمل للكل، ضحيتم وطعمتم من أضحياتكم، وطعم معكم من لم يقدر على الأضحية. بل وطعم معكم من تلك الأضحيات كل ذات كبد رطبة، ما نقص ذلك منكم شيئاً، وفي ذلك رمز إلى الرزق الفائض، والخير العميم وآية على أن الأرض ما شحت بخيراتها، ولا بخلت بثمراتها، ولا ضنت بحيوانها، ورأيتم أن هذه البلاد ذات الصحارى الجرداء والجبال الصماء، وسعت هذا الجمع الغفير، والحشد الحاشد من كل أركان الأرض. فما بات أحد يشكو الجوع ولا تُرك أحدكم في الشمس المحرقة.. ولا قتل أحدا منكم الظمأ، وما ذاك — أيها السادة — إلا أن الأرواح قد سمت، والنفوس قد صفت، والمشاعر قد ارتقت، فوسع الغنى الفقيرَ ببره. وأمد القويُّ الضعيف بعونه. ونال العاجز من القادر عطفه. ووجد الضال من يهديه لمأواه. ووصل الحجيج إلى مبتغاه، في نفس اليوم المحدد، وفي نفس الساعة المرتقبة، وفي نفس المكان المطلوب. وأنها وايم الله لمعجزة التعاون، وفضيلة الاتحاد، وبركة التوجه إلى الله. و بذل النفس النفيس في سبيل الله.

(*) ألقيت من راديو مكة في موسم سنة ١٣٧٢

إنها ذكريات عظيمة لمشاهد عظيمة . وسوف لا تزايل أخيلتكم ، ولا تبارح أفكاركم ، وسوف تتحدث بها نفوسكم فى السر ، وتنطق بها ألسنتكم فى الجهر ، إنها أثر من أثر النبوة ، ومشهد من مشاهد الإسلام ، وأنه حفل من محافل الدين ، والدين الإسلامى الحنيف لا يختص بهذا التعاون أرضاً دون أرض ، ولا يختص بهذا الاتحاد ناساً دون ناس . ولا يقف فى تشريعه على زمن دون زمان . وليس هو بدين مظاهر وشكليات ، وليس هو طقوساً تؤدى ثم لاشيء خلفها . وإنما هو دين الأبد ، وتراث الأجيال ، وناموس الحياة ، يريد الاتحاد لأبنائه تحت كل سماء تظلهم ، وفى كل مجتمع يضمهم ، وفى كل دائرة تحيط بهم ، فاتخذوا مما شهدتم نبراساً تسيرون به فى حياتكم ، وهدىً تهتدون به فى معيشتكم ، وجُنة تتقون بها تكالب الأمم عليكم ، وقوة تصدون بها العاديات عنكم . إن الإسلام — أيها السادة — دين عمل ، فإذا أردتم أن تتحدثوا عن هذه الرحلة الروحية الممتعة ، رحلة التجرد من الماديات ، والتحرر من الأهواء والشهوات ، تحدثوا وأنتم متجردون عن كل نزعة فاسدة ، وعن كل شهوة غاشمة ، وعن كل غرض فاجر ، تحدثوا بقلوبكم وأعمالكم قبل أن تتحدثوا بألسنتكم المجردة عن كل نية ، البعيدة عن كل همة . . اعملوا وقولوا ، ولا تقولوا مالا تريدون به إلا مجرد القول « يا أيها الذين آمنوا كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

إن الأمم — أيها السادة — حولنا تعمل ، ونحن نقول ، وتخترع ونحن نعجب ، وتصنع الرائع ونحن ننبهر ، وتأتى بالمعجزات العلمية والطبية والحربية ونحن لا نصنع غير تحبير الخطب ، وتدبيج المقالات ، وإنشاء القصائد . حتى صار لنا أمام كل حصن عندهم مقال عندنا ، وأمام كل باخرة قصيدة ، وأمام كل مدفع مؤلَّف ، وأمام كل مصنع خطبة ، وأمام كل مستشفى تمثيلية ، وأمام كل ثكنة توشيح ، وأمام كل قنبلة بستان ، وأمام كل صاروخ حربى قصر ، وأمام كل مدرّعة ثوب فخم .. لا — أيها السادة — لا يريد الدين منا هذا ولكن يريد منا العكس ، ولا يكون لنا كل ذلك إلا إذا فهمنا هذا الدرس البليغ الذى تلقناه فى أداء مناسكنا ، وخلاصة هذا الدرس تتلخص فى كلمة

واحدة هى التجرد ، التجرد من سلطان المادة وأهواء النفس وملاذ الجسد . فالتجرد هو القوة التى تدفعنا إلى الوحدة و إلى التعاون إلى الرحمة و إلى العمل المنتج المفيد . التجرد هو المجد الذى تتهاوى أمامه الأمجاد الزائفة . التجرد هو العزة التى تمحق الذلة وتبيد المسكنة . التجرد هو الذى يدفعنا للسير إلى الأمام خفافاً لا تعيقنا الفضلات والتوافه عن المثل الأعلى للإنسان الفاضل والأمة الكاملة .

لقد رسفنا — أيها السادة — فى أغلال الشهوة أجيالا طويلة ، ونسينا الله فنسينا وذهب بريحنا . فأصبحنا كالأنعام نتخبط فى ظلمات الحياة . والعظات تترى علينا ، فلا نتعظ والعبر تمر أمام أعيننا فلا نعتبر ، ولقد آن لنا أن نفيق من غشيتنا . ونستشف من شعائر ديننا منابع العزة ، وموارد القوة ، فنسير فى حياتنا متبصرين بنور الله ، مهتدين بهدى رسول الله .

أيها السادة . إن الله تباركت أسماؤه جعلنا أمة وسطاً ، بين المشرق والمغرب ، لنكون شهداء على الناس ، فلما أئتمرنا بأمره واخترنا رضاه على رضى أنفسنا فضلنا على الناس . ولما غيرنا ما بأنفسنا غير الله حالتنا وتركنا كما ترون « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » نعم لقد غير الله ما بنا فلم يعد لنا فضل على الناس ولم تعد لنا هيبة بين الأمم .

مافضل قوم يرى فى الناس مجلسهم ... فى آخر الناس بعد الناس كلهم
وفى القيامة يوم الحشر يسألهم ... رب العباد عن التفريط فى النعم
أليس ذمته فينا وصيته ... (إن تنصروا الله ينصركم) على الأمم
ماذا نقول : إذا ما الله قال لنا ... : فيم التهاون فى أمرى وفى كلمى ؟
أنقذتكم برسولى من مجاهلكم ... وأورثتكم بكتابى ملك ذى إرم
ماخست مذ كنتمو جندى بعهدكمو ... وكنت ناصركم فى كل مختصم
فكيف خستم بعهدى بعد توفيقى ... بما وعدت وأرخى جمعكم علمى ؟

نعم لقد أرخينا راية الله فأرخى الله راياتنا وزحزحنا عن مجلس آبائنا ووضعنا

فى المؤخرة . وما كان الله ليزحزح أهل ملته وأنصار دينه إلا لضعفهم وتجافيهم عن سلوك الصراط المستقيم وهو تأديب لنا . وإن لله تأديباً فى عباده ليعيدهم به إلى صوابهم فقد هزم الله جند محمد يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم ، فلما أفاؤا إلى الله وتابوا سرعان ما أيدهم بنصره واكتسبوا المعركة وأصبحوا سادة الموقف .

فإذا أردنا أن نستعيد مجلسنا ونعاود سيرتنا فلنفئ إلى أمر الله ولنعد إلى كتابه مسترشدين به . وبذلك نستطيع أن نؤدى الرسالة التى اختارنا الله لحمل أعبائها .

هل ترون — أيها السادة — إننا نبلغ ذلك بالأقوال الجوفاء ، أو بالادعاء الكاذب أو بالمخادعة والتزوير ؟ أو ترون أننا نحظى باحترام الأمم ونحن على ما نحن عليه من اختلاف الكلمة والتقصير الذى أوخذنا عليه وأخشى أن نؤخذ به ؟

لنتجرد — أيها السادة — من الزيف الخادع والبريق الكاذب ، لنتجرد — أيها السادة — من الأهواء والنوازع السيئة والأطماع الوبيلة . لقد تكلمنا حتى أغثنا الكلام وإذا كان ما مر بنا من زمن لا يسعنا فيه غير الكلام فليكن ما يستقبلنا من الزمن بعد حجنا هذا للعمل . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » جعل الله حجكم مبروراً ، وسعيكم مشكوراً ، وذنبكم مغفوراً . ونسأله أن يمدنا بعونه وتوفيقه على أداء ما علينا من واجبات والقوة على حمل ما علينا من أعباء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الرســـول

حياة محمد صلى الله عليه وسلم(*)

هذا عنوان لكتاب ألفه كاتب امريكانى يدعى (ر . ف . بودلى) وترجمه إلى العربية الأستاذان محمد فرح وعبد الحميد جوده السحار .

وإن لى ولعاً بما يكتبه الغربيون عموماً — عن الشرق وأديانه وأناسه وولعاً أشد بما يكتبه هؤلاء عن شرقنا العربى بوجه خاص . ومنشأ ولعى بذلك ما أراه من طرافة وجدة فيما يكتبه الكتاب الغربيون عنا . ولا يعنينى بعد ذلك ما جاء فيها من آراء وأفكار أو التعليق عليها أو يعنينى ولكن ليس بالقدر الذى يدفعنى للكتابة عنها أو الرد عليها ، إلا ما كان خاصاً بمعتقداتنا .

وقد قرأت كتاب « الرسول » هذا الذى نحن بصدده فوجدت فيه ما يستحق الرد عليه خصوصاً وأن الكتاب حاز رواجاً فى البلاد العربية . ولم أقرأ فيما قرأت من تصدى للرد عليه فى هذه النقاط التى سأتحدث عنها بالذات .

وقبل أن أدخل فى لباب الموضوع أقف بالقارىء وقفة قصيرة لجلاء بعض الحقائق التى لمستها فى الكتاب الغربيين الذين أتيح لى قراءة مؤلفاتهم المترجمة إلى لغتنا . . لقد اشتهر كتاب الغرب بعمق التفكير وغزارة المادة ودراسة الموضوع الذى يريدون الكتابة عنه دراسة مستفيضة حتى لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من شؤونه . وهذه حقيقة لا سبيل إلى نكرانها ولكن لمست إلى جانب هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنهم لم يستطيعوا على غزارة علمهم أن يتخلوا ولو قليلا عن ماديتهم وكأنهم اتخذوا من كل أدران الأرض سياجاً متيناً أقاموه حول عقولهم

(*) نشر بمجلة الحج فى غرة جمادى الثانية سنة ١٣٧٠ العدد العاشر من السنة الرابعة وفى العدد الأول من السنة الخامسة الصادر فى غرة رجب سنة ١٣٧٠ .

١ — أن القرآن من تأليف محمد . وهى قولة مكرورة سار عليها كتاب الغرب قديماً وحديثاً وما استطاع بودلى — ولا خلاف بودلى — ممن يكتبون عن الإسلام ونبيه أن يتحرروا من هذا التكرير حتى لكأنه تقليد واجب الاتباع وهو آية الجمود الذهنى الذى منى به كتاب الغرب من هذه الناحية وكأن أحداً منهم لم يقرأ الردود الكثيرة التى قام بها الذائدون عن بطلان هذه الفرية . أو هم قرأوها . ولكن عجزوا عن مناقشتها ، وإلا فلماذا نرى بودلى وغير بودلى حينما يلقى بهذه القولة لم يتصد لمناقشة ما كتب من ردود عليها . ؟

لقد سبق أن قلنا أن كتاب الغرب اشتهروا بالدراسة المستفيضة والإلمام بالموضوع الذى يتصدون للكتابة فيه فليس من المعقول — وذلك المشهور عنهم — أن بودلى لم يطلع على تلك الردود ولكن المعقول أن مناقشتها والرد عليها لم يكونا من طوقه فلاذ بالصمت . واكتفى بتقليد الكاتبين فى هذا الموضوع من بنى جنسه .

وما دام القرآن الكريم تنزيلا من العزيز الحكيم رب محمد ورب أعداء محمد . فلن يغيره قول بودلى أنه من تأليف محمد . . وما دامت الآية على أنه منزل من الله عجزت الأجيال البشرية عن الاتيان بمثله أو بسورة من مثله فما عسى أن تكون الآية التى تؤيد فرية الزاعمين بأنه من تأليف محمد . ؟ . إن محمداً نشأ أمياً فى أمة أمية . وحتى الأمم المتحضرة فى عصر محمد لم تصل ثقافتها إلى المستوى الذى يجعلها تلم بكل ما انكشف لأبناء العصر الحاضر من أسرار الكون وآفاق الثقافة فكيف تسنى لمحمد الأمى أن يلم بكل ذلك وأن يشير إليه إجمالا أو تفصيلا فى مؤلفه . !

وعجيب أن تتسم ثقافة محمد — إذا أغضينا جدلا — عن أنه أمى بمثل هذه السعة فى المعلومات والاحاطة بالكون وأسراره وبمثل هذا الاعجاز فى البيان والروعة فى الإداء بحيث لا يصل إلى كل ذلك أحد فى أمته ولا فى الأمم المجاورة التى بلغت شأواً بعيداً فى الثقافة . وينفرد دونهم بمثل هذا المؤلف ! !

وإذا كان الموضوع موضوع تأليف فما الذى حجر على المؤلفين ممن عاصروا

١ — أن القرآن من تأليف محمد . وهى قولة مكرورة سار عليها كتاب الغرب قديماً وحديثاً وما استطاع بودلى — ولا خلاف بودلى — ممن يكتبون عن الإسلام ونبيه أن يتحرروا من هذا التكرير حتى لكأنه تقليد واجب الاتباع وهو آية الجمود الذهنى الذى منى به كتاب الغرب من هذه الناحية وكأن أحداً منهم لم يقرأ الردود الكثيرة التى قام بها الذائدون عن بطلان هذه الفرية . أو هم قرأوها . ولكن عجزوا عن مناقشتها ، وإلا فلماذا نرى بودلى وغير بودلى حينما يلقى بهذه القولة لم يتصد لمناقشة ما كتب من ردود عليها . ؟

لقد سبق أن قلنا أن كتاب الغرب اشتهروا بالدراسة المستفيضة والإلمام بالموضوع الذى يتصدون للكتابة فيه فليس من المعقول — وذلك المشهور عنهم — أن بودلى لم يطلع على تلك الردود ولكن المعقول أن مناقشتها والرد عليها لم يكونا من طوقه فلاذ بالصمت . واكتفى بتقليد الكاتبين فى هذا الموضوع من بنى جنسه .

وما دام القرآن الكريم تنزيلا من العزيز الحكيم رب محمد ورب أعداء محمد . فلن يغيره قول بودلى أنه من تأليف محمد . وما دامت الآية على أنه منزل من الله عجزت الأجيال البشرية عن الاتيان بمثله أو بسورة من مثله فما عسى أن تكون الآية التى تؤيد فرية الزاعمين بأنه من تأليف محمد . ؟ . إن محمداً نشأ أمياً فى أمة أمية . وحتى الأمم المتحضرة فى عصر محمد لم تصل ثقافتها إلى المستوى الذى يجعلها تلم بكل ما انكشف لأبناء العصر الحاضر من أسرار الكون وآفاق الثقافة فكيف تسنى لمحمد الأمى أن يلم بكل ذلك وأن يشير إليه إجمالا أو تفصيلا فى مؤلفه . !

وعجيب أن تتسم ثقافة محمد — إذا أغضينا جدلا — عن أنه أمى بمثل هذه السعة فى المعلومات والاحاطة بالكون وأسراره وبمثل هذا الاعجاز فى البيان والروعة فى الإداء بحيث لا يصل إلى كل ذلك أحد فى أمته ولا فى الأمم المجاورة التى بلغت شأواً بعيداً فى الثقافة . وينفرد دونهم بمثل هذا المؤلف ! !

وإذا كان الموضوع موضوع تأليف فما الذى حجر على المؤلفين ممن عاصروا

محمداً فى أمته وفى غير أمته أن يؤلفوا كتاباً مثله . ؟ أو أن قدرة التأليف — فى ذلك العصر — كانت وقفاً على محمد صلى الله عليه وسلم دون سواه ؟

وإذا تخطينا عصر محمد فلماذا لم نجد فى خلال ثلاثة عشر قرنا وسبعين عاما من أجاب التحدى من أعداء محمد وألف مثله أو سورة من مثله . والتحدى قائم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم .

٢ — ويقول المؤلف إن دين المسيحية أكثر روحانية من دين الإسلام . وإنى أؤمن بعيسى عليه السلام ورسالته . بل الإيمان بذلك ركن من أركان الإيمان الكامل فى الإسلام . إلا أن الذى أريد بيانه هنا كرد على قوله هذا ما يتجلى فيه من التحامل على الدين الإسلامى — وهو كما قلنا شأن كتاب الغرب جميعاً — فبودلى فى الوقت الذى يؤمن بروحانية الأديان أو أنه يرينا أنه يؤمن بهـذه الروحانية ينتقص منها فى الدين الإسلامى ويجعلها فى الدين المسيحى أكثر . وإذا أردنا أن نناقشه بمنطقه يضطرنا لأن نقول له كيف تبين له ذلك . ؟ أتبين له من السلوك الحسن الذى يبدو من أتباع المسيح فى معاملة الشعوب والأفراد ؟ أو من التسامح الذى يبدو منهم حيال الزنوج فى امريكا ؟ أو مما يلقاه الزنوج هناك من أمن وطمأنينة واستمتاعهم بحقوق الإنسان . ؟ أو من المثل العليا التى افتتنت بها الأمم المسيحية فصارت شعارها فى معاملة الشعوب الملونة ؟ أو من العفة والزهد فى شن الحروب والغارات والاعتداء على الضعفاء ؟ . أو فى عدم افتتان المسيحيين بفرض سلطانهم على الناس بالقوة العـاتية الغشوم ؟ أو من الوفاء بالعهود وعدم خفر الذمم اللذين اتسم بهما المسيحيون مع الناس جميعاً ؟ أم من الحروب الصليبية التى شنها المسيحيون على العرب بدافع من الحب المثالى المتجرد عن كل غرض أو شهوة ؟ أم من السلام والرحمة اللذين أنزلهما المسيحيون بالشعب العربى فى الأندلس حتى لم يبق عربى ولا مسلم إلا واكتنفته روحانية المسيحيين الأتقياء فى ذلك الركن من أركان أوربا ؟

أما أنه لم يقصد بالروحانية المسيحية التى هى أكثر من روحانية الإسلام كل

ذلك وإنما الذى أراده تكوين طبقة من القسس والرهبان يصومون عن الطيبات ويحرمون على أنفسهم الزواج فإنه وإن وجد فى المسلمين من يحرم على نفسه ذلك ولكنه ليس من الإسلام فى شىء إذ (لا رهبانية فى الإسلام) وهل تصلح هذه الرهبانية أن تكون مقياساً للروحانية ؟

إن روحانية الإسلام فى مراقبة النفس البشرية لباريها فى السر والعلن فى الأخذ والعطاء فى الشدة والرخاء وعدم الميل مع الهوى . وتنزيه النفس عن الحقد والبغضاء والتعدى والابتعاد عن أكل أموال الناس بالباطل وأن يحب المرء أخاه ويحب له ماأحبه لنفسه والدرجة المثلى أن يؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة ولقد استطاع الإسلام أن يبقى فى نفوس أصحابه ومعتنقيه رغم الأعاصير التى مرت به وبهم . . وروحانيته ما زالت وسوف لا تزال توجه المسلمين فى جميع شؤونهم ومهما بدا على المسلمين من سمات الانحراف عن الإسلام فما أسرع ما يعودون إليه لائذين معتصمين بحجته الدامغة ونوره القوى الباهر .

وما هكذا المسيحية فهى ما استطاعت البقاء بتعاليمها وروحانيتها فى نفوس أتباعها ولقد جنى عليها أتباعها وارتكبوا باسمها كثيراً من الحماقات . أفمن روحانية المسيحية أن لا تبقى على دين بجوارها كما صنعت قديماً — فى الأندلس فمحقت كل معالم الإسلام وجعلتها أثراً بعد عين . . ؟ أو من روحانية المسيحية ما يلقاه المسلمون تحت أكناف أتباعها من اضطهاد فى فجاج الأرض ؟ فى عصرنا الحاضر .

أما روحانية الإسلام فلم تضق بيهودية ولا بمسيحية فى عصر من العصور وفى أعز معاقل الإسلام وأحصن حصونه . وما أبقى على اليهودية والمسيحية فى الشرق العربى إلا روحانية الإسلام السمحة السامية . ولم يعرف عن المسلمين أنهم هدموا كنيسة أو معبداً أو اضطهدوا جماعة لم تدن بدينهم أو أبادوا أمة لم تعتقد معتقدهم أو خفروا ذمامها أو استباحوا حرماتها . وذلك هو المقياس الصحيح للروحانية .

والمقياس العلمى أو الجدلى هو عرض تعاليم الإسلام ومقابلتها بعرض تعاليم

المسيحية ثم المفاضلة بين روحانية كل من الديانتين . أو ترك المفاضلة لذهن القارئ ونقديره أما تفضيل شيء على شيء دون إعطاء القارئ حق الموازنة . فذلك ليس من العلم فى شيء . وهى طريقة تجافى الحق والانصاف أما إذا أريد التدليس والتلبيس والتعصب للرأى تعصباً لا يستند إلا على المكابرة ونكران الحقائق أو تجاهلها . فذلك أمر لا يحتاج إلى ادعاء العلم والتعالم وادعاؤهما إمعان فى السخف وإغراق فى الصغار .

٣ — ويقول المؤلف « وقد أملت الظروف المحلية كثيراً من القوانين الإسلامية فيرجع تحريم الخنزير إلى رداءة المراعى وقذارتها فى الشرق فهى أحط من مثيلاتها فى الغرب كما أن العرب لا يعرفون طريقة طهيها (ص ١١٣) واقرأ معى أيها القارئ الكريم هذا التحليل السخيف المضحك فلو صدر هذا القول عن ذهنية عادية لا تدعى العلم فهو لا يثير الضحك بقدر ما يثيره صدور هذا القول عن ذهنية تزعم لنفسها سعة الاطلاع ودقة الملاحظة والاخلاص فى درس ما تتصدى للكتابة عنه متى كانت لأوربا وأمريكا مراع للخنازير مثل مراعيها فى العصر الحاضر ؟ إن أمريكا التى أنجبت هذا المؤلف عريقة جداً فى الحضارة ومن حضارتها القديمة الممعنة فى القدم عنايتها بمراعى الخنازير كالآن سواء بسواء . وأوربا لم تكن فى جهل مطبق وظلمة دامسة حين بزوغ الإسلام كلا . فقد كانت أوربا وأمريكا فى ذلك الوقت كما هما اليوم وليت كولمبس كان حياً ليرى أنه لا فضل له فى اكتشاف أمريكا .

إن صح أن مراعى الخنازير فى أمريكا اليوم نظيفة — كما يقول بودلى — وكانت نظيفة أيضاً قبل أن تكتشف أمريكا . وقبل أن تبلغ أوربا هذا الشأو فى الحضارة . فإن الإسلام لم ينظر فى تشريعه تحريمها لهذا الاعتبار . ولكن لاعتبارات اسمى مما يصل إليه ذهن بودلى وأمثاله فالحكمة فى التحريم والتحليل عند الإسلام مصلحة الإنسان أياً كان . وفى أى ركن من أركان الأرض أقام . إذ هو دين عالمى لا يتقيد بظروف المكان والزمان . وقد حرم الإسلام الخنزير قبل أربعة

عشر قرناً تقريباً وجاء الطب الحديث باكتشافاته العلمية بعد هذه الحقب الطوال . فأبان عن الأضرار التى تنجم عن أكل لحم الخنزير : وعرف الحكمة من كان يجهلها فى تحريمه . . أما الطهى فما أظن المغرب إلى الآن يضاهى الشرق فى إتقانه .

٤ — يقول المؤلف : « إن جهنم عند المسلمين على عكس جهنم عند المسيحيين واليهود ليست تعذيباً لا نهائياً ولكنه كبيت للتمريض حيث يذهب الناس للعلاج من الآلام النفسية فإذا ما برؤوا دخلوا الجنة » وإن دلنا هذا القول على شىء فليس هو إلا جهل المؤلف بالأديان كافة وعدم إلمامه بالدين الإسلامى خاصة . فجهنم التى وعد بها الكافرون فى الإسلام والمسيحية واليهودية واحدة . تعذيب أبدى . أما عصاة المؤمنين فلا يخلدون فى النار لئلا يحرموا أجر إيمانهم وعدم جحودهم بالله وملائكته وكتبه ورسله . وإلا فما الفرق بينهم — لو خلدوا — وبين الجاحدين الكافرين ؟ ؟ تلك هى العقيدة الإسلامية التى لم يستطع أن يتبينها بودلى .

٥ — ويقول المؤلف : « وما الجحيم إلا تجسيم مشاق الصحراء المحرقة القاحلة التى تحيط بمكة (ص ١١٩) وهذا قول لا يصدر إلا ممن يقول إن القرآن من تأليف محمد فيفترض أن محمداً يجسم المناظر التى تقع عليها عينه . ولكن فات بودلى أن مشاق الصحراء المحرقة التى تحيط بمكة ليس فيها شرر يتطاير ، وليس فيها ثياب من نار وإذا كان الجحيم تجسيم لمناظر الصحراء فالجنة تجسيم لمناظر ماذا ؟ . ولكن بودلى لا يتكلم عن النعيم ، لأنه لم يجد فى صحراء العرب ما يصح أن يجسمه محمد للنعيم الذى لا يحد .

ويقول فى (ص ١٣٨) إن إله المسلمين أشد قوة من إله المسيحيين ولأعد بذهن القارئ إلى ما ذكرناه عنه من القول بأن جهنم عند المسلمين بيت للتمريض ويقضى قوله هذا بأن يكون إله المسلمين أشد رحمة لا أشد قوة . وإذا أغضينا النظر عن تناقضه فإننا نشتم من قوله هذا السخرية بالأديان السماوية وإغراقه فى المادية الملحدة وإلا فهو يرى أن الأمر لا يعدو أن تكون الأديان السماوية شبيهة بخرافات

الإغريق الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة : إن المؤمن يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً لا يعتقد بتعدد الآلهة ولا يرى أن لكل ملة إلهاً وإنما هو إله واحد خلق الخلق وأرسل إليهم رسله يهدونهم إلى طريق الحق والفلاح .

٧ — ينكر بودلى المعراج ، وما كان لنا أن نهتم بهذا الإنكار لولا أنه يقول إن كل ما جاء عن هذه الرحلة الإلهية فى القرآن : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجدالأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم » ص ١٣٨ ولو تلى بودلى قوله الله تعالى : « فدنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » لتبين له أن فى القرآن إشارة إلى المعراج .

٨ — يقول بودلى « ولم يعرف عن محمد لو استثنينا حادثة أو حادثتين أنه انتقم لنفسه من أعدائه المنهزمين » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد مايكون انتقاماً لنفسه أو غضباً لها ولم يعرف المسلمون أنه — عليه السلام — انتقم لنفسه من أحد ، وإنما كان غضبه لله فقط ولو كانت نفسه الزكية تنزع به للانتقام لانتقم من قاتل عمه حمزة . . ولكن بودلى يرسل أقواله واتهاماته جزافاً دون ما إمعان ولا روية وهذا يحملنا على إساءة الظن به ، ولو كان مبرئاً من الغرض منزهاً عن النية السيئة لساق فى عرض حديثه الحادثة أو الحادثتين التى عزا فيها الانتقام أو حب الانتقام الذى يلصقه بودلى سيد الناس المبرء من الأدران المعصوم من النقائص والعيوب .

٩ — كان بودنا أن يترفع بودلى عن الانحدار ولكنه أبى إلا أن يضع نفسه فى الموضع المشين إذ يقول : (فى ص ٢١١ و ٢١٢ فى حديثه عن هند بنت عتبة : « فقد رفضت أن يمسها زوجها أو أى من عشاقها حتى تثأر لموت أبيها » وإذا كانت البيئة التى نبت فيها بودلى لا تجعله يتصور امرأة بغير عشيق ، أما كان يجدر به أن يبين لنا عشاق هند ؟ أو عشيقاً واحداً على الأقل ؟؟ أما وقد أعياه البحث ولم يعثر لهذه المرأة على عشيق واحد . أفما كان الأجدر به أن ينزه قلمه عن مثل هذا

القول ؟ ؟ . لم يقل أحد من المؤرخين على كثرة ما كتب المؤرخون عن هند أنها كانت ماجنة أو كانت مريبة فى سلوكها بل بالعكس فقد أجمع المؤرخون على أنها كانت عفيفة متطرفة فى عفتها . فى جاهليتها و بعد إسلامها وكانت ذات حساسية شديدة مرهفة جعلتها تحلف على أن لا تعود لزوجها الأول الذى داخلته الريبة فى أمرها مما أدى إلى ذهابها مع أبيها وزوجها وجماعة من قومها إلى أحد الكهنة فى قصتها المشهورة . وما كان من أمر زواجها بأبى سفيان . بالرغم من اقتناع زوجها الأول ببراءتها و بذل جهده فى استرضائها هذا فى جاهليتها أما فى إسلامها . فقد قالت للرسول صلى الله عليه وسلم وهو قائم يأخذ البيعة من النساء يوم الفتح بأن لا يزنين « أو تزنى الحرة يا رسول الله ؟ » وهو استنكار المرأة الشريفة المعتدة بشرفها . أمام الرسول الذى يأتيه الوحى من السماء فيخبره بالمخبوء والمستتر .. إن هنداً يا مستر بودلى امرأة عفيفة لا يتجه تفكيرها إلى الانحدار و إن ساورتها نفسها به فإن لها من حزمها واعتدادها بنفسها وبأسرتها ما يبعدها عن ذلك . ولكن من أين لنا أن نقنع مستر بودلى بحقائق تعد من خوارق العادات فى عقول الغربيين ولكنها من الحقائق الأولية التى لا تحتاج إلى إقامة البراهين عند العقلية العربية المسلمة ؟

هذه هى أهم المآخذ التى جاءت فى هذا الكتاب ولولا أن السكوت عليها يجعلنا محاسبين عليها أمام الله وأمام ضمائرنا حيال ديننا ونبينا وأسلافنا لوسعنا ما وسع غيرنا من السكوت . ولكن خشية الله هى التى دفعتنا إلى هذا الرد الموجز فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس وما التوفيق إلا من عند الله . و إننا نرجو من ناشئة البلاد المسلمة أن لا يقرأو كتابات المستشرقين عن الإسلام ونبى الإسلام إلا وهم متفطنون إلى ما فيها من مغامز ليكونوا لها بالمرصاد ؟

مصر والعرب والإسلام

مصر الدعامة الكبرى التى ترتكز عليها البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة لأن لها من موضعها الجغرافى مايجعلها ملتقى الشرق بالغرب . ومن ثقافة أبنائها وتعدد ألوان الثقافة فيها مايجعلها مصدر إشعاع علمى يمتد إلى آماد بعيدة كما يقول جمال عبد الناصر . ومن محافظة أهلها على تراث الأقدمين مايجعلها مرجعاً من أهم المراجع التاريخية . ومن سماحة أهلها ورحابة صدورهم مايدعها ملاذاً لكل حر وملجأ لكل مضطهد . وقد صار ذلك تقليداً لها منذ القدم ، فلا محالة والحالة هذه أن يكون لأحداثها أصداء تتردد فى المشرق والمغرب ويتأثر بها مجرى الحياة فى كل لون من ألوانها . وهى تمتاز على سائر البلاد العربية بميزة تجعلها فى مكان الزعامة أحب من أحب وكره من كره .

هذه الميزة تجمع إلى كل ماتقدم خصوبة أرضها ، ووفرة سكانها ، وارتباطها بالسودان مما يجعل منها ومن السودان بلداً واحداً . وهى على وفرة عدد السكان بالنسبة للبلاد العربية تقل فيها الطائفية المذهبية ، ولا تجد أثراً للنعرات العصبية أو المذهبية فجلهم سنيون ومعظمهم مسلمون ، ولكن تعيش الطائفية بجانبهم فى حرية وأمن شاملين ، ونتاجهم الأدبى والعلمى والفنى والصحفى أكثر وأعمق وأوسع من كل البلاد العربية مجتمعة . ونشاط أهلها فى مختلف الشئون أكثر من نشاط كل الدول العربية مجتمعة . ولها من جمال مناخها واعتدال جوها فى الصيف والشتاء . ورحابة آفاق الحياة فيها مايحبب العرب فيها .

وكيفما تلونت الحياة فى مصر تتلون الحياة فى سائر أقطار العرب . فثورة مصر الأخيرة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لم تكن ثورة لمصر وحدها وإنما هى ثورة للبلاد العربية بأجمعها . وإذا اختلفت مظاهر هذه الثورة فى البلاد العربية عن مظاهرها

فى مصر . فإنها لم تختلف فيما أحدثته من ثورة فى المشاعر والأفكار والأحاسيس بل فى معانى الأشياء . فإن كثيراً من المعانى كان مفهوماً فى الأذهان قبل هذه الثورة بغير المفهوم الذى تقرر فى الأذهان بعدها . وكان بعض المعانى مفهوما على حقيقته عند الطبقة المستنيرة إلا أنه كان غامضاً كل الغموض عند الجماهير . فلولا الثورة ما كان لفضيلة الشيخ محمود شلتوت أن يجهر برأيه الصحيح عن نظام الحكم الملكى فى مجلة الدعوة ويقول للجماهير أن الإسلام لايقر هذا النظام بوجه من الوجوه ، وفى عهد الثورة تبينت للجماهير حقيقة إسلامية ثانية بصورة عملية وهى تحريم احتكار الأراضى الواسعة واستمناع فئة قليلة من الناس بخيراتها وحرمان الآخرين وخصوصاً العاملين فيها . وتبين للجماهير أن تلك الفئة كانت تسرق لقمة العيش من أفواه الشعب لتنعم بملاذ الحياة وحدها . وذلك أمر لايقره الإسلام بوجه من الوجوه . والحق أن الإسلام يحرم اكتناز الأموال واحتكار الأرزاق ، ولكن كان هذا المفهوم ضيقاً محدوداً . ولما صادرت الثورة الأموال المكتنزة فى قصور الملك والأمراء والأرض المحتكرة التى هى مصدر الأرزاق ووزعته لمستحقيه وأهله من أبناء الشعب اتسع فهمنا للاكتناز والاحتكار . تلك معانى وإن كانت ظاهرة بحيث لاتجهلها الطبقات المثقفة إلا أنها كانت غير مفهومة عند سواد الشعب . وما كان أحد من العلماء والمثقفين يستطيع الجهر بذلك لأن الطغيان كان مادا رواقه على كل شىء حتى على الضمائر والأفكار بل حتى على معانى الدين الإسلامى الذى تدين به هذه الملايين من العرب والمسلمين . وكان من يشتم منه مثل هذا الفهم للحقائق الدينية الواضحة يتهم بالشيوعية أو بالإلحاد . والخروج عن ملة المسلمين .

فثورة مصر صححت كثيراً من الأخطاء فى مفهوم الجماهير للمعانى الإنسانية النبيلة وللحقائق الدينية التى وأدها الطغيان والظلم والجبروت .

ولما كان تيار الثورة المصرية جارفاً قوياً فى تأثيره على الناس . فقد أرغم هذا التيار الجارف بعض الذين كانوا ناقمين على الثورة أن ينحازوا إلى السير مع التيار

وإن كان سيرهم وئيداً وبطيئاً جداً لأنهم مسوقون بغير إرادة ، إلا أنهم أدركوا أنهم إن لم يسايروا التيار فسوف يجرفهم معه ولا يجديهم تجافيهم عنه ولا تمنعهم عليه فتيلا .

والعرب لا يستطيعون في شتى أقطارهم الانفصام عن مصر. وهم لو أرادوه وعملوا له . فإنهم لا يبوؤن إلا بالفشل . ذلك لأنهم إذا فقدوا مصر ، فإنما يفقدون أنفسهم ، ولغتهم وتاريخهم ، وأكاد أقول ودينهم أيضاً ، ومالى لا أقول ذلك وخيرة علماء الأمة العربية فى الدين وفى اللغة وفى التشريع وفى الحديث وفى علوم القرآن كلها مصريون . وخيرة قراء القرآن مصريون وخيرة الأدباء بل أعلام الأدب العربى والذين تفتخر بهم الأمة العربية مصريون . وما أظن بلداً عربياً يستطيع أن يكتفى بعلمائه ومقرئيه وأدبائه وفنانيه ويستغنى عن مصر ، ومطابع مصر ودور الكتب فى مصر . ودور الآثار العربية فى مصر هى الحفيظة على تراث العرب وتجديده . ولولا مصر لضاع على الأمة العربية الشىء الكثير مما يعتز به أبناء العروبة والإسلام تلك هى مصر من العروبة ، فإن بعد أثرها ورددت بلاد العروبة أصداء الأحداث التى تجرى فى مصر فذلك لأن مصر تحتفظ بأكبر مجموعة من أبناء العروبة فى واديها الرحب الفسيح وهى إذ تحتفظ بأكبر مجموعة عربية لا تحتفظ بهم وليس معهم شىء بل تحتفظ بهم ومعهم كل شىء يهم العرب وتعتز به العروبة بين أمم الأرض . وما من فاجعة أصابت قبيل من العرب إلا وكانت مصر تقوم بدور البطل المنقذ . والتاريخ حافل بمآثر مصر فى هذا الصدد .

ولست بسبيل تعداد مناقب مصر ولكن القلم انساق إلى ذكر ما ذكر انسياقا لم أستطع رده . وإنما الذى أريد أن أقوله أن ما يحدث بمصر له أثره الفعال وصداه المدوى فى البلاد العربية . ولقد اهتز الشرق العربى لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

اهتزازاً عنيفاً . وانتفضت الأحاسيس والمشاعر انتفاضة لها أثرها الطيب فى مستقبل الشعوب العربية عن بكرة أبيها . وسيكون لهذه الانتفاضة أثرها العميق فى دعم صلاتها الوثيقة بمصر حتى تظفر الأمة العربية بما تصبو إليه من منعة وقوة : ومشاركة فعلية فى بناء حضارة لا شرقية ولا غربية ولكنها إسلامية عربية . فنحن نستطيع أن نحقق ما نريد كما يقول الثائر العربى الشاب ابن مصر جمال عبد الناصر فى كتابه « فلسفة الثورة » .

الحجاز وأثره فى الحضارة الإسلامية(*)

...وإذا أردنا العدول عن هذا القول فليس أسهل من القول بما لا يجرأ أحد على إنكاره وهو أن الحجازيين هم واضعوا نواة تلك الحضارات المختلفة وهم مهدوا السبيل لنموها وازدهارها وهم الذين عبدوا طرق العلم والمعرفة ليجتازها الناس على السواء بعد أن كان التعليم محظوراً إلا على فئات خاصة فى كل الشعوب وفى كل الأمم بدون استثناء وذلك بما بذلوه من جهود فى فتح البلاد ونشر الإسلام الذى من تعاليمه « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » فى مختلف البلاد التى وطئتها خيولهم و بما كان لهم من الأحكام العادلة والسير الفاضلة فشحذوا العزائم الفاترة وأيقظوا النفوس من سباتها العميق وحثوا الناس على اجتياز طرق المعرفة للعمل النافع فى الحياة . وإن الباحث عن قوام الحضارة الإسلامية يجد القرآن الكريم منبعها والتشريع الإسلامى مصدرها . فالقرآن الكريم هو أصل العلوم ومرجع المعارف فى الحضارة الإسلامية ومحور البحث عند علمائها ولترتيل القرآن وفهمه جاء علم التجويد وعلم التفسير وجر الأخير إلى علوم النحو والصرف واللغة والأدب والبيان والبديع . ومن القرآن وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم : تألفت كتب الحديث والفقه فالتشريع فالفرائض فجر ذلك إلى الحساب . ومن الغزوات النبوية والفتوحات المحمدية كانت كتب السيرة فالمغازى . فالتراجم والطبقات — فالتاريخ . ويقضى التوغل فى الفتح اتخاذ الحصون واستثمار الأرض ومعرفة الطرق فكان الاعتناء بعلم الجغرافيا بأنواعها لا يقل عن الاعتناء بالزراعة فالرى فالمساحة فالعمارة . وقد اختط الحجازيون للغرض نفسه البصرة والكوفة اختطهما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وواسط اختطها الحجاج بن يوسف الثقفى والقيروان اختطها معاوية بن أبى سفيان والفسطاط اختطها عمرو بن العاص وغيرها .

(*) ألقيت هذه المحاضرة بدار الإسعاف بمكة المكرمة فى سنة ١٣٥٨ وقد فقد القسم الأول منها .

من البلدان الخالدة والعواصم الضخمة التى شادتها عزائمهم والتى كانت فيما بعد مهد الحضارة الإسلامية .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه زاهدين فى دنياهم راغبين فى آخرتهم فوضع المسلمون مبادىء التقشف على هذا الأساس فكان الزهد فالتصوف وتعداه ذلك إلى علوم الكلام كالتوحيد والمنطق والفلسفة بأنواعها . وقد سبقتنا الأنسة مَىْ الأديبة المشهورة إلى ما يقارب هذا فقالت فى كتابها : « المد والجزر » « القرآن مصدر جميع العلوم التى عنى بها المسلمون فى أوج حضارتهم فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية ثم أليس : الجغرافيون الأول وعلماء المسالك والأمصار هم الذين مضوا من أقاصى أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج وعادوا يصفون رحلتهم وما رأوه من الجديد غير المألوف ؟ ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آى القرآن وتطبيق قواعد النحو والصرف على نصوصه ؟ ألم تطالب ؟ ارصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعيد الحج والصوم ؟ ألم تشترع مسائل الوقاية الصحية والنظافة واهتمام الأطباء كما ظلت بعدهم تحثهم على البحث والتنقيب » ؟

وساهم الحجازيون فى تنمية المعارف والعلوم مساهمة عملية فعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أول واضع لعلم النحو وعبد الله بن العاص أول من دون الحديث فى صحيفته التى كان يسميها الصادقة . والحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور أول من اخترع التطبيب بالموسيقى كما سنبينه فى محاضرة أخرى إذا وفق الله . ومعلوم أن المثل العليا للمتأدبين باللغة العربية فى جميع العصور ما فاه به الحجازيون الأول ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أبلغ من نطق بالكلام العربى المبين ثم من يليهم من خطباء قريش وفصحاء المدينة وشعراء الحجاز ومن هذا تتبينون — ياسادتى — مدى

إسهام الحجازيين فى إقامة صرح الحضارة الإسلامية ومبلغ ما أسداه أبناء هذا القطر المقدس من الخدمات الجليلة فى صالح البشر . ولا تحسبنَّ الحجاز وقف عند هذا الحد فى تموين الحضارة الإسلامية فإنه بعد أن تطاولت عليه دمشق و بغداد واستأثرتا على عاصمة الإسلام الأولى بالخلافة أخذ فى إمدادها بغذاء جديد واحتفظ لنفسه بصفحة يذكرها له التاريخ ضمن أعماله التى وفق لإجادتها فلقد نبغ من الحجازيين إمامان جليلان يرجع إلى جهودهما الفضل فى ترتيب الفقه الإسلامى وتبو يبه وتمحيصه من الآراء المتضاربة والأحاديث المنقولة هما : الإمام مالك المدنى وتلميذه الإمام الشافعى المكى . أما مالك فهو أول من بوب الفقه ورتبه ومحصه ووطأ للناس أمور دينهم بموطئه الجليل ومشى على غراره الشافعى وزاد على ذلك باختراعه علم الأصول لمعرفة الأحكام الشرعية . يقول الرازى بعد كلام طويل « استنبط الشافعى رحمه الله أصول الفقه ووضع للخلق قانوناً كافيا يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع فتثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة ارسطاليس إلى علم العقل لأنه هو الذى فتح هذا الباب والسبق لمن سبق » ويقول الأستاذ المحقق أحمد أمين فى « كتاب ضحى الإسلام » : للشافعى الفضل خاصة فى تنظيم الإجماع والعمل به وما يصلح منه وما لا يصلح وتنظيم القياس الذى جرى عليه الحنفية ووضع قواعد له وتقسيمه أقساما وتوضيح علله و بيان ما يجوز وما لا يجوز — الخ .

وقد ظهر إلى جانب هذين الإمامين الجليلين أفذاذ من الحجازيين سلكوا ناحية أخرى.

فالتاريخ يقول لنا : إن معبد وابن سريج وابن عائشة وغيرهم نبغوا فى فن الغناء والتوقيع على الآلات وأن عمر بن أبى ربيعة اشتق لنفسه طريقته المشهورة فى الشعر الغزلى والتى لم يسبقه إليها أحد قبله من شعراء العرب وحذا حذوه الحجازيون من أمثاله فتألفت من هذين الفريقين الأغانى العربية الرائعة . وحاز هؤلاء قصب السبق وقد نبغ قبلهم — الحارث بن كلدة — فى وضع الآلات الموسيقية

ومعالجة مرضاه بها وازدهرت هذه الصناعة على أيديهم بما كانوا يتعهدونها به من جهود متوالية حتى أصبحت مراسح الأنس ومجالس الطرب فى مكة والمدنية تستهوى إليها خلفاء بنى أمية ثم العباسيين كما تستهوى مدينة (هوليود) بكواكبها الناس فى الشرق والغرب . فكانت النجوم المتألقة فى سماء الفن الغنائى تسطع فى ربوع الحجاز فتبهر من فى الشام ومن بالعراق . وكانت سبباً فى نشاط حركة التوسع فى هذا الفن فى تلك العاصمتين الكبيرتين دمشق ، و بغداد . وتألفت من جراء ذلك كتب الأغانى فالموسيقى فالفنون الجميلة بأنواعها المختلفة . هذه هى العلوم والفنون التى وضع نواتها الحجازيون والتى شاركوا فى تنميتها وازدهارها مشاركة عملية كما علمتم مما قدمنا كانت — وما تزال أغلب العلوم التى يشتغل بها علماء العالمين العربى والإسلامى حتى بلغت مبلغها من الاتساع والتضخم بما ادخل عليها من التحوير والتحسين والتلقيح والتنميق كما نراها فى صورتها الحاضرة فى هذا العصر . ومن أدل الأمثلة أيضا على تفوق الحجازيين وما كان لأقوالهم وأفعالهم من التأثير فى مجارى الأمور موقف الشاعر الحجازى العبقرى أبى محمد عبد الله بن موسى عند ما نكث نقفور ملك الروم عهده للرشيد العباسى فأنشده قصيدته الخالدة التى يقول فيها :

نقض الذى أعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى بالنقض عنه وافد و بشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده حذر الصوارم والردى محذور

وهى قصيدة طويلة غير بها مجرى التاريخ واستفز الخليفة إلى أن يقف بالجبهة الإسلامية موقف القوة بعد أن كان متردداً فاستخذى نقفور وانكمش .

وما كنا لنسرد عليكم — أيها السادة — كل ذلك إلا لتعلموا أن الحجازين ما زاولوا عملا أياً كان من الأعمال إلا وكانوا فيه من البارزين . وما ولجوا طريقا إلا كانت خطاهم فيه مسددة . وما وجهوا همتهم لأمر من الأمور إلا كانوا أئمة يقتدى بهم . وما جاءت تلك المؤهلات التى يمتاز بها الحجازيون والتى تدفع بهم لأن يكونوا دائما فى الأمام وعلى المقدمة وفى أول الصف إلا من ذلك الذكاء الفطرى الكامن فيهم كمون النار فى الحجارة لاتلبث أن تقدح فتورى بقبس مبين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

خواطر وأفكار

لم خلقنا ؟

كثيراً ما نتساءل بيننا و بين أنفسنا لم خلقنا ؟ والمسلم لا يضرب فى بيداء الفلسفة ومتاهات الأفكار ؟ لأنه يجد الجواب على هذا السؤال ماثلا فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقد مرت أجيالٌ على المسلمين وهم لا نفهمون من هذه الآية إلا العبادة المحدودة كالصلاة والصيام والحج والزكاة ولا يعرفونها إلا شكلا حتى أصبحت صلاتنا وزكاتنا لا تؤديان الغرض الذى يريده الله منا . وأصبح صيامنا وحجنا جوعا وعطشاً وضرباً فى الصحراء وتعرضاً لوعثاء السفر ومواطن الأخطار ثم لا شىء وراء ذلك ولذلك أصبحنا نرى المسلمين يصومون ويصلون و يحجون و يزكون و يأتون أنواع العبادات والنوافل ولكنهم فى أعمالهم ومعاملاتهم مع بعض لا يلتزمون مع آداب الإسلام وفرائضه . وواجبات المسلم والتزاماته . هذا من جهة ومن جهة أخرى . فإن تحديد العبادة بالصلاة والصوم والحج والزكاة والإكثار من النوافل كالتهجد وصيام أيام من كل شهر وتلاوة القرآن . وقصر العبادة على ما شابه ذلك قصراً شكلياً فهم خاطىء . فكل هذه العبادات لم تكن مقصودة لذاتها و إنما المقصود منها تصفية النفس الإنسانية والسمو بها عن مواضع الدناءات . فلا تدع للشهوات والغرائز سلطاناً يهيمن عليها و يصرفها عن العمل لصالح الفرد وصالح المجتمع الذى يعيش فيه وكل عمل يقوم به الإنسان سواء أكان هذا العمل فى المسجد ، أو فى المصنع ، أو فى المتجر ، أو فى الوظيفة ، أو فى أى مرفق من مرافق الحياة فهو عبادة ما دام يؤديه على الوجه الذى يفيده و يفيد منه المجتمع الإسلامى أو بوجه أعم المجتمع الإنسانى . فالذى يقضى ليله سهراً لحفظ الأمن والذى يقضى يومه نصباً فى العدل بين الناس ، والذى يقضى عمره فى الثورة على الظلم ، والذى يبذل جهده فى استنبات الأرض والذى يبحث فى أسرار

السكون و يستجلى غوامضها ويجلوها للناس أفضل بكثير ممن يقضون أعمارهم فى الصلاة والصوم والتهجد وقراءة القرآن ثم لا يستفيد منهم المجتمع شيئاً ذلك لأن الأولين يعبدون الله عبادة تنفع الناس أجمعين أما الآخرون فإنهم يعبدون الله وعلى فرض صحة عبادتهم فإنهم لا ينفعون بذلك إلا أنفسهم فقط والفرق بين هؤلاء وأولئك كالفرق بين من يستأثر بالمصلحة لنفسه ولنفسه فقط و بين من يؤثر الناس على نفسه .

إن فريقاً من الناس يصلون كأحسن ما يصلى الناس لربهم ولكنهم ينافقون ذوى السلطان و يتملقونهم . ولا ينكرون عليهم ظلمهم إذا ظلموا الناس .

و بعضهم يصلون كأحسن ما تكون الصلاة أناة وصحة ولكنهم لا يجودون بأموالهم حرصاً عليها وشحاً بها و إن كان الجوع والعرى والبؤس يفتك بالملايين من حولهم .

و بعضهم يصلون و يصومون ولكنهم لا يعلمون من أمور دينهم غير الصلاة والصيام و يسكتون عن قول الحق خشية أن يلحقهم أذى أو مكروه .

و بعضهم يصلى و يصوم ويزكى و يحج ولكنه يرى بعض العلوم النافعة كفراً و إلحاداً لا يجوز للمسلم الاشتغال بها و يستعدون الحكام عليهم بحجة الحرص على عقيدة الإسلام . وإذا طلبت إليهم المناقشة فى ذلك وقرع الحجة بالحجة أبووا واستكبروا وقالوا : ما أنزل الله بهذا من سلطان .

و بعضهم يصلون و يصومون و يحجون و يزكون أيضاً ولكنهم لا يتورعون عن تناول أى ربح يأتيهم عن أى طريق ما داموا يحققون بذلك ما ينشدون من ثراء .

و بعضهم يصومون و يصلون . ولكنهم لا يتحرجون عن الإيقاع بالأبرياء وذلك وسيلتهم الوحيدة إلى لقمة العيش .

و بعضهم يصومون و يصلون بل و يتمسكون بكل مظاهر الحرص على الإسلام . ولكنهم يسكبون ماء وجوههم رخيصاً فى سبيل منصب من المناصب أو زعامة من الزعامات أو أى غرض من أغراض النفس الأمارة بالسوء .

و بعضهم يصلون و يصومون و يحجون كأحسن ما تكون الصلاة والصيام والحج ولـكنهم يستبيحون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم من الناس .

إن كل هؤلاء ومن يشبهونهم أو يتشبهون بهم لا تنفعهم صلاتهم و إن تقوست ظهورهم من السجود والركوع . ولا ينفعهم صيامهم و إن تمزقت أحشاؤهم من الجوع والعطش . ولا ينفعهم حجهم و إن أدمت أجسامهم رمال الصحراء . ولا تنفعهم قراءتهم للقرآن و إن تقطعت حناجرهم من ترتيله وتنغيمه . ولا ينفعهم تهجدهم و إن أدمى أجفانهم طول السهر . ذلك لأنهم لم يحققوا معنى العبادة التى خلقهم الله من أجلها .

ولذلك نجد المسلمين اليوم ينظرون للمسلمين بالأمس — حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأتون بالمعجزات الخالدات — نظر دهشة واستغراب و يتساءلون فيما بينهم و بين أنفسهم كيف استطاع محمد وأصحابه أن يدفعوا الحياة تلك الدفعة القوية و يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ؟ و يملوا على التاريخ فيسجل لهم ما يملون عليه وهو صاغر ؟ إن بُعد المسافة بين المسلمين اليوم والمسلمين بالأمس جعلنا ننظر إليهم كأننا خلقنا من طينة غير طينتهم . إن الطينة التى خلقوا منها هى الطينة التى خلقنا منها غير أنهم فهموا الإسلام روحاً وفهمناه شكلا . فهموه معنى وفهمناه كلاماً . فهموه تضحية ونضالا وفهمناه تشدقا و إدعاء .

* * *

إننا لم نخلق عبثاً ولـكن خلقنا لنعبد الله — كما قال الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

فلنفهم العبادة فهماً صحيحاً ، ولنبعد عن أذهاننا ذلك الفهم السطحى المحدود الذى قصرته أجيال الظلمة والظلام على الصلاة والصيام والحج وقراءة القرآن ثم لا شىء وراء ذلك إن العبادة التى خلقنا الله من أجلها هى كل شىء فيه صلاح البشرية والسمو بها . و إذا لم نفهم العبادة الفهم الصحيح فإن قوى الشر العارمة النابعة من نفوسنا ستجتاحنا قبل أن تجتاحنا قوى الشر الوافدة علينا من الخارج . فلنحقق إرادة

الله فى خلقنا ولنعبده العبادة الصحيحة . فإننا لن نكون أعزاء فى الدنيا أقوياء على الأعداء إلا إذا عبدنا الله حق عبادته وفهمنا المقصود من قوله تعالى « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » وهناك . هناك لا يساورنا الشك فى حكمة خلقنا . ولا نتساءل فيما بيننا و بين أنفسنا (لم خلقنا ؟) فإنى لا أرى مبعث هذا التساؤل إلا ما ران على حياتنا من قلق للمعنى السقيم الذى علق بأفهامنا . وقيام ذوى الأغراض والنزوات بيننا و بين الفهم الصحيح للمعانى السامية الخليقة بأمة قال فيها خالقها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » والعبادة فى كلمة صغيرة موجزة هى تحقيق المعانى الإنسانية السامية على وجه الأرض ولذلك خلقنا .

لا تقف على الحافة

نعم لا تقف على الحافة . فإن الواقفين عليها إن لم يسقطوا فلن يرتفعوا . ولست جماداً تجىء إلى الدنيا وتخرج منها ، دون أن تشعر بك الحياة . و إذا أحببت لنفسك الخمول والوقوف فى مكان واحد فلن يضيرنا ذلك لو أن هذا الوقوف يقتصر عليك . ولـكن خمولك يغرى الآخرين بعدم الحركة . و بذلك تفقد الحياة عنصرها الأصيل . ولا يكون الفارق بين الوجود والعدم كبيراً أو هاماً .

إن الحياة لاتتمثل فى أروع مظاهرها إلا فى الإنسان . فلماذا تقضى على روعة الحياة بوجودك ؟ أفلا يكفيك أن تقضى على روعتها حين تموت ؟

لا تقف على الحافة ، وكن موجة من موجات الخضم وحبذا لو كنت موجة من موجاته العاتية .

إن ماء البحر يتجدد بالموج المتلاطم ، وما المجتمع إنه الخضم الـكبير ؟ وأنا وأنت وهو أمواجه التى يجب أن تتحرك وإلا تأسنت الحياة . وشاعت رائحة الأسن الـكريهة فى المجتمع الذى نعيش فيه .

لا تقف على الحافة فإن وقوفك عليها يفقد الخضم موجة من أمواجه ، و إذا فقد البحر موجة من أمواجه لا يلبث أن يفقد الـكثير بعد ذلك ، و بذلك لا يكون للبحر رهبة ، ولا لأمواجه روعة ، ولا لحياته معنى . .

لاتقف على الحافة ، فأنت واهم إذا كنت تظن الوقوف على الحافة يهبك السعادة ، إن السعادة لا تحسها إلا إذا اندمجت فى اللجة ، وزدت فى عنفوانها بحركتك فيها .

نعم إنك قطرة ، وأنا أيضاً قطرة ، وهو كذلك قطرة . والمحيطات الـكبيرة

لم تتألف إلا من هذه القطرات مجتمعة ، لو أن كل قطرة انفصلت عن البحر ووقفت على الحافة لجف البحر ، ولتبخرت القطرات .

لاتقف على الحافة فإنك إن مكثت عليها قليلا ، ستتبخر فى الهواء كما تتبخر كل قطرة تنفرد بنفسها .

لاتقف على الحافة وادفعنى معك لأدفع غيرى وننزل جميعاً إلى اللجة لنمنح حياتنا حركة ، ووجداننا سعادة ، ولنترك بوجودنا أثراً فى أعماق الحياة .

ألوان التعبير

ليس التعبير وقفاً على الكلام نظماً أو نثراً . بل يتعداه إلى أشياء كثيرة ، منها التصوير ، والرسم ، والنحت ، والرقص ، والتمثيل ، والموسيقى ، والغناء .

وقد أوتى الإنسان ملكة وقدرة على التعبير بكل أولئك . بل ربما كان التعبير فى الإنسان الأول يقتصر على الإشارة والإيماء والصوت . قبل أن يخترع الإنسان اللغات التى يتكلم بها .

والأمة التى تعبر بكل ألوان التعبير أرقى بكثير من الأمة التى يقتصر تعبيرها على لون أو لونين من ألوان التعبير .

والذين يتنكرون لألوان التعبير المختلفة فيما عدا التعبير بالكلام فإنما هم يتنكرون للمواهب والملكات الإنسانية التى أودعها الله فى خلقه ، ويحجبون عن أنفسهم بذلك كثيراً من الأسرار والمعانى والمباهج التى تزخر بها أنفسهم ، والكائنات التى تحيط بهم . ويعيشون ويموتون وهم فى ظلمة داجية من الكثافة فى الحس والجمود فى المشاعر والتبلد فى الطبع والقصور المزرى فى الوعى والإدراك .

إن من بعض المعانى الإنسانية مايعجز الكلام عن الإفصاح عنها بينما الإيماءة من الممثل تؤديها أداء بليغا . ولن تستطيع أن تنتقل إلى عصر من العصور وتعيش مع أهل ذلك العصر إلا فى المسرح . فإن المسرح هو القادر الوحيد الذى ينقلك إلى العصر الذى تريد أن تحيا فيه وتعيش مع أهله وترى أسلافك رأى العين . ذلك لأن المسرح أعد لهذه النقلة كل شىء لتكون نقلة حقيقية ، تعيش فيها بروحك وعقلك بل وبجسمك ساعة من الزمان .

وإن بعض الخلجات الوجدانية الغامضة التى تحوك فى أنفسنا لا يوضحها لك وضوحاً مريحاً مثل الموسيقى .

وإن من الأمراض النفسية ما لا علاج له إلا بالموسيقى . وقديماً عرف ذلك عبقرى الطب فى الحجاز الحارث بن كلدة الملقب بطبيب العرب ، فقد عالج بعض مرضاه بالموسيقى . وقد أيد العلم — حديثاً — معالجة بعض الأمراض النفسية بالموسيقى وإن بعض الارتسامات التى ترتسم على الوجه من أثر الفرح أو من أثر الخوف أو من أثر الغضب أو من أثر الزمان لا يخلده إلا نحات فى تمثال أو مصور فى صورة . كل أولئك ألوان من التعبير التى لا يستغنى عنها الإنسان ولا يهملها إلا كل من لا يحب لنفسه إلا أن تكون سجينة فى أسار الجمود .

* * *

لقد علق بذهنى — وأنا ناشىء — من أوهام المخرفين ما يعلق بذهن الناشئين فى بيئة جامدة . فكنت لا أرى فى التصوير والرسم والنحت والتمثيل والرقص والموسيقى إلا عملا من أعمال الشيطان التى يجب أن ابتعد عنها وحكمت على نفسى بأن تظل سجينة ما علق بها من خرافات وأوهام . باسم الإسلام . لأن ما علق بذهنى من خرافات لم يتسلل إلىّ إلا من رجال يزعمون بأنهم علماء الإسلام وفقهاؤه ومن انكبا بى على قراءة تلك الكتب الصفراء . التى قذفتنا بها عصور الظلمة والجمود الفكرى الذى كان طابع المسلمين فى حقبة كبيرة من حياتهم تلك الكتب التى أفسدت عقولنا ولوت طرائق التفكير فينا . وجعلتنا تقليديين عمياناً لا نبيح لأنفسنا أن نتنفس إلا فى أجواء مظلمة موبوءة . . فوجدت فى نفسى ضيقاً وصرت أتساءل هل الإسلام حقاً يحرم علينا ما تميل إليه نفوسنا ؟ وينكر عواطفنا ووجداننا ويصرع ملكة التفكير فينا ؟ وإذا كان هذا حقاً من الإسلام فكيف يكون الإسلام دين الفطرة ؟ وأين الفطرة من هذه القيود وهذه الأغلال التى تثقلنا ؟ فلما تفتحت نفسى للحياة أخذت فى تنمية ملكة التميز الفكرى حتى استطعت أن أستبين الزائف والصحيح من الحقائق . فصحبت بعض العلماء المتحررين من الجمود وعكفت على قراءة ما أشاروا به على من الكتب . فإذا أنا أجد الإسلام دين الفطرة حقاً . لقد وجدته

يفيض سماحة وكرماً وعدلا ورحمة . يكرم الإنسان ولا يتنكر لعواطفه ولا يحرم ما تميل إليه الأنفس ويعترف بالشهوات . وإنما هو ينظمها تنظيما دقيقاً لمصلحة الإنسان . لئلا تشيع الفوضى فى المجتمع الإنسانى ولئلا تعلق الخرافات والأوهام بذهن الإنسان . ولئلا يتحلل الإنسان الذى هو أكرم المخلوقات وأرقاها فينسى أنه مخلوق كريم .

فإذا نظم الإنسان بتعاليم الإسلام عواطفه وشهواته وما تميل إليه نفسه ولم يتعد الحدود التى رسمها له الإسلام وحرر نفسه من الأوهام وعقله من الخرافات . وأصبح مؤمناً بقوة واحدة تهيمن على الكون . وأن ما عداها من القوى البشرية والقوى الكونية إنما هو خاضع للناموس الإلهى المهيمن على هذه الأشياء . وإن العقل فى الإنسان هو أعظم قوة وهبت له ليهيمن على ما حوله . ولا يتمكن من هذه الهيمنة إلا بتنمية ما فيه وماتنطوى عليه نفسه من أسرار وذخائر واستجلائها استجلاء واضحاً لاغموض ولا إبهام فيهما . وبذلك يستطيع أن يستولى على الأرض والسماء وما بينهما ويستفيد من عناصر القوة ويدرء عن نفسه الأضرار التى تنشأ من العناصر المضادة المؤذية الهابطة بالحياة . ووجدت أن الإسلام لا يقف حجر عثرة فى سبيل كل أولئك ولا يحرم إلا كل مايؤدى إلى ضعف الإنسان وجموده وتحجره وانحلاله . ووجدت نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام لم يحرم ما حرمه علينا المتنطعون فى الدين باسم الإسلام . لقد كانوا وما زالت بقية منهم يحرمون على المسلمين كثيراً من العلوم والفنون . أما الرسول فقد مر على الأنصار وهم يوبرون النخل فلما سألهم عن ذلك قالوا : ليثمر النخل فمنعهم فلما لم يثمر النخل قال عليه الصلاة والسلام : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ولم يمنعهم من توبير النخل مرة أخرى . وكانت فى بيته الطاهر الشريف ستارة منقوش عليها صورة حيوان . فلم يمزق الستارة — كما يفعل المتنطعون فى الدين اليوم — وجاء أحباش إلى المدينة يرقصون ويلعبون بعض الألعاب التمثيلية والبهلوانية فكان عليه الصلاة والسلام يسند أم المؤمنين السيدة عائشة لترى . وهو يرى معها . وقال مرة

للسيدة عائشة : هل زففتم الفتاة إلى بيت زوجها ؟ فقالت : نعم . قال : أبعثتم معها من يغنى ؟ قالت : لا . قال : ألم تعلمى أن الأنصار يعجبهم الغزل ؟ هلا بعثتم معهـا من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء ما جئنا بواديكم

وسمع مرة جارية تغنى بهذا البيت :

هل على ويحكموا إذا أحببت من حرج

فقال عليه الصلاة والسلام لا حرج إنشاء الله .

وكان يأمر صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة وغيره من الصحابة أن يحدوا وهو فى السفر . وكان للسيدة عائشة دمى تلعب بها فلم ينكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الدمى ؟ أليست تماثيل ؟ .

وكان يسمع الشعر فى مسجده ويجيز عليه . واستعان عليه الصلاة والسلام بالشعر فى النضال عن الإسلام والدعوة إليه فكان الشعر من الأسلحة القوية التى حاربت الوثنية ، ذلك هو الإسلام لا تجد فيه إلا السماحة والحرية والانطلاق . وذلك نبى الإسلام سمحاً كريماً رحيما رؤوفاً بالمؤمنين .

نعم . إن كل شىء له حد ، فكما أن كل الطعام حلال لنا إلا الميتة والدم ولحم الخنزير ، وكل الشراب حل لنا إلا الخمر ، وكل الربح حلال لنا إلا ما كان سرقة أو رشوة أو ربى أو ميسر أو كسب غير مشروع .

وكل اللباس حلال للرجال إلا الحرير وقد يحل للضروة ، وكذلك كل الغناء حلال وكل الموسيقى حلال وكل الرقص حلال وكل التصوير حلال وكل الرسم حلال ، إلا ما كان خليعاً مجافياً للذوق متعدياً للحدود ، والحكمة فى التحليل والتحريم واضحة .

إن من يمنع النـاس من حقوقها ويدع الشعب يكابد الجوع والحرمان ثم يقيم

تمثالا ينفق عليه من قوت الشعب يرتكب حراماً ، ومثله فى الحزمة من يبنى قصورا شاهقة تصرف عليها الملايين من أموال الشعب فهذا مثل ذاك ، أما أن نحاتاً أو رساماً يصنع شيئاً من ذلك و يبيعه ليقتات هو وعياله من ثمنه ، فأى حرمة فى ذلك ؟ وعلى فرض أن التماثيل كانت محرمة فقد انتفت العلة التى حرمت من أجلها الآن لأنها كانت تعبد وتتخذ آلهة من دون الله إننا فى عصر وضع الأصنام تحت أقدامه من أى نوع . ومن المستحيل أن ترتفع الأصنام إلى مقام الألوهية بعد الآن .

لقد فهمت الإسلام على حقيقته . واستطعت أن أميز بين الصحة والزيف . وعرفت حقيقة كانت مجهولة فى نفسى تلك الحقيقة هى علة هذا التأخر وهذا الضعف اللذين منيت به البلاد الإسلامية عامة وعرفت أن الاستعمار الأوربى ما كان لينقض على البلاد الإسلامية ، لولا أننا كنا نفهم أوكانت المجتمعات الإسلامية تفهم أن الإسلام هو هذه المفهومات الخاطئة التى تلقتها من أدعياء العلم بالإسلام .

ولو أن المجتمعات الإسلامية سلمت من الذين يفرضون آراءهم ومفهوماتهم عليها باسم الدين . وترك السبيل مفتوحا بينها و بين العلماء الذين اضطهدوا وافترى عليهم بأنهم زائغون مارقون عن الدين . لما وصلنا إلى ماوصلنا إليه من هذا الضعف وهذا التأخر الذى نتجرع مراراته وندفع ضريبته للاستعمار والبغى والطغيان .

إن المسلمين سبقوا أوروبا فى مزاولة العلوم الفلسفية والرياضية والطبعية والفلكية ولنشاطهم فيها آثار خالدة ومنها ما كان المفتاح الذى فتح لأوروبا وعلمائها مغاليق الطبيعة . حتى أصبحوا على ما هم عليه الآن . ولو استمر نشاط المسلمين فى مزاولة العلوم والفنون النافعة لا كتشفنا كثيراً من القوى التى اكتشفتها أوروبا اليوم وظهرت علينا بها . ولكن مع الأسف الممض منيت بلادنا ومجتمعاتنا بمحاربة النابغين والعباقرة من علمائنا وأفذاذنا فكانت النتيجة أن صرنا عالة على غيرنا فى كل شىء .

واتهم الإسلام بتهمة الجمود والتعصب والرجعية . وظنت به الظنون، ووقعت بلادنا

فى أسر لا يخلصها منه إلا أن ننفض عن عقولنا وأفكارنا ومفاهيمنا كل ما علق بها من أوساخ الماضى وأقذاره ، ونسير فى إقدام وشجاعة ، ومضاء إلى السمو والتحليق .

* * *

وليس فى التعبير بكل ألوان التعبير عن أنفسنا وأفكارنا ووجداننا ضير علينا . فمن أعجزه التعبير بالكلام شعراً ونثراً ويحسن التعبير بالموسيقى أو بالرسم أو بالنحت أو بالتصوير أو بالتمثيل أو بالرقص ، فليعبر به وهو مطمئن إلى أنه لم يأت عملا يخالف الدين وإنما هو يبين عن ملكة أو موهبة أو دعها الله فيه فلا بعطل تلك الملكة فإن تعطيلها تعطيل لخلق الله . والله يقول فى كتابه الكريم « والله خلقكم وما تعملون » .

* * *

إن على الراشدين منا أن ينموا غريزة التعبير بألوانه المتعددة فى النفوس . فنحن فى حاجة إلى معهد للتمثيل . وفى حاجة إلى معهد للرسم . وفى حاجة إلى معهد للموسيقى ونحن فى حاجة إلى المسرح لأن المسرح فى عصرنا مدرسة للجمهور يفتح وعيه ويهذب طبعه . ويسمو بذوقه ويبصره بعيو به ويضع يده على مآسيه وجراحاته .

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن هذه الأشياء كماليات ونحن لم نستكمل ضرورات الحياة . أو أن هذا ترف فى التفكير .

ولكن لو فكرنا قليلا تفكيراً غير متقل بما علق فى أذهاننا من مفهومات تقليدية مكبلة بقيود الجهل والجمود . لوجدنا أننا لا نستغنى عن تلك المعاهد لتنمية ملكات التعبير المختلفة فى أنفسنا لنستطيع النعبير بكل لون من ألوانه عن رغباتنا وإذا تضافرت ألوان التعبير فسنصل سريعاً إلى المستوى الذى نريده أما بقاؤنا على قصر التعبير بالكلام فقط فإننا نكون كالنجار أو الحداد أو أى صانع لم يستكمل أدوات صناعته . ومن لم يستكمل أدوات صناعته لا يبلغ من غايته ما يبلغه صاحب الأدوات الكاملة .

* * *

إن شارلى شبلن الممثل الـكوميدى المشهور . لا تقل مكانته عن مكانة أى مصلح اجتماعى كبير خدم الإنسانية بقوة أدائه . وأسر تعبيره . ولم يكن شارلى شبلن يعتمد على الـكلام فى خدماته الإنسانية . و إنما كان يعتمد فى قوة تمثيلة واندماجه فى الدور الذى يريد إبرازه .

لقد اصطحبنى أحد الأصدقاء الأعزاء إلى دار من دور «السينما» وكان هذا الصديق يعرف عزوفى عنها . ولـكنه ألح على فى أن أصحبه لأشهد شارلى شبلن فى فلم صامت . فقلت له : إن الأفلام الناطقة لا تثير فى الاهتمام بالسينما فـكيف تريد إغرائى بالذهاب معك إلى فلم صامت ؟ فقال : إننى لم أحرص على أن تصحبنى إلا لأن الفلم صامت لعلك ترى ما يبلغه الصمت من النفوس ، ولتعلم أن الإنسان يستطيع التعبير عن أدق خوالج النفس الإنسانية ، و يثير شتى الانفعالات فى غيره دون أن ينطق بكلمة واحدة . و إن تعبير هذا الصديق الـكريم بهذه اللهجة أغرانى على الذهاب معه . وشهدت الفيلم . وخرجت وأنا مؤمن بأن الله وهب الإنسان من المواهب والملكات التعبيرية الشىء الـكثير وأن الذين وقفوا التعبير بالـكلام فقط ولم يستعملوا ما عداه محرومون من أدوات قوية لو استعملوها لزادتهم قوة فى الحياة . وسمواً فى التفكير وعراقة فى الإنسانية الذكية النابهة .

ودخلت معرضاً لرسم اللوحات . فخرجت وأنا أحس بأنه قد تفتحت فى ذهنى آفاق جديدة ما كانت لتتفتح لولا زيارتى للمعرض . لقد رأيت فى تلك الرسوم من المباهج المرتسمة على بعض الوجوه . ما لم أكن ألحظه على وجوه الأحياء . إلا قليلا لأن الحى فى تغير مستمر . فإشراق معنى البهجة فى وجه إنسان لا يلبث إلا لحظة خاطفة ، هذه اللحظة الخاطفة لا يصورها إلا فنان . وكذلك كل المعانى من مباهج أو مآسى من ألم أو ارتياح تجدها بارزة بروزاً بيناً فيما يقدمه لك الفنانون فى آثارهم .

وفى ليلة كنت أشعر بأحاسيس غامضة . لا أعرف كنهها . ولا أستطيع التعبير عنها ، وكان بجوارنا معهد التمثيل العالى . وكان الجو ساكناً . فتسللت إلى نغمات

المثلين فى ترتيل بعض الأناشيد بصحبة صوت آلة موسيقية . وكنت مستلقياً فى منزلى . فوجدت نفسى تدفعنى دفعاً لمتابعة تلك الأنغـام . و بانتهائها انتهى ما كنت أشعر به من تلك الأحاسيس الغامضة التى كانت تكر بنى .

أفترى أن الإنسان أوتى كل تلك الأشواق وكل تلك الأحاسيس . وزود بالملـكات التعبيرية المختلفة عبثاً ؟ أو تراها خلقت لتوأد ؟ كلا إن الله خلقنا وخلق فينا المواهب والملـكات لنستجلى من كل أولئك أسرار صنعته و بدائع حكمته ونزداد به إيماناً . ونستمد من كل ذلك قوة نقابل بها الحياة ما دمنا أحياء . ولنهتف من الأعماق (سبحانك ما خلقت هذا باطلا) .

كيف نحتفظ بعروبتنا

ألقيت بقاعة المحاضرات بدار الإسعاف الخيرى
بمكة سنة ١٣٥٩ هـ

أيها السادة :

لقد احتلت جمعية الإسعاف من قلوب المواطنين مكانة عالية فإنها الجمعية الإنسانية التى تعمل للخير ولا شىء غير الخير .

ومما امتازت به أن جعلت فى دارها قاعة للمحاضرات ليساهم الأدباء والعلماء بنتاجهم الأدبى فى تغذية الأذهان والأرواح .

فشكراً لرئيسها الشيخ محمد سرور الصبان على شعوره الطيب الذى يدفعه لأن يبتكر من الأعمال كل ما هو جليل ونافع ، ويمد به أمته فى هدوء وتواضع ، حتى أصبح هذا الرجل فى مقدمة رجالاتنا الذين لا يحيون لأنفسهم فحسب ، ولكنهم يحيون ليحيا معهم الناس . فإذا ما رأينا القلوب مليئة بحبه والألسنة لاهجة بشكره فما ذلك إلا لما امتاز به من أياد بيض تجعله جديراً بالحب حفياً بالثناء وما التوفيق الذى يلازمه فى أعماله إلا آية إخلاصه أدام الله له التوفيق .

سادتى :

أريد الليلة أن أحادثكم فى شأن ما يجب علينا لهذا الوطن البار بنا ، وأن ما أريد أن أحادثكم به هو أقل ما يجب لوطننا علينا ونحن إذا قصرنا فى أداء هذا الواجب يعد قصورنا عقوقا منا فى جانبه ، وإلى متى يمنى هذا الوطن بالعقوق ؟

فلقد مرت عليه سنون وتعاقبت عليه أجيال وهو لم يجد من أبنائه غير نكرانهم لجميله وتجاهلهم لحقوقه وجحودهم لفضله . وما وجد من مستوطنيه وسكانه من حنى عليه أو اهتم بشأنه أو استمع إلى شكواه وهو فى كل ذلك صابر محتسب لا يتألم ولا يتململ

ولا يسخط ولا يتذمر ، حتى خيل إلى رائيه أنه فاقد الشعور مسلوب الإحساس . وحتى ظنه الكثيرون أنه فى عداد الموتى فهم إذ يذكرونه لا يذكرونه بغير الرثاء ، و إذ يدعون له لا يدعون له بغير الرحمة والغفران . وهل يذكر الأموات أو يدعى لهم بغير هذا ؟

وما أدى بالناس لأن يظنوا به الظنون لولا ما أصيب به من عقوق أبنائه وما منى به من جحودهم لفضله ، ونكرانهم لحقوقه ، وقد آن الأوان لأن نغسل عنا عار العقوق الذى لحقنا فلقد قيض الله لنا فرصة نبذل فيها الجهود ونقف همنا ونصرف عنايتنا لما يعلى شأن هذا الوطن و يقيمه من كبوته . و إذا لم يكن فى مقدورنا القيام بالأعمال المنتجة فلا أقل . من أن نبذل شيئاً من الجهد ولو بالكلام ، وهل أقل من الكلام؟

صحيح أن الأقوال إذا لم تسندها الأعمال كانت ضربا من ضروب العبث الذى لا فائدة منه ولا ثمرة فيه ، ولكن الأقوال إذا كانت صادرة عن إيمان وعقيدة و إخلاص لا يقصد بها إلى غرض من الأغراض الشخصية الخاصة يكون لها من الأثر فى القلوب ما يضمن لها التحقيق بالأفعال .

وكلنا يستطيع أن يقول . ولكن ليس كلنا يقول و يعتقد ما يقول ، أو على الأقل يحمل نفسه على العمل ولو ببعض ما يقول ، لذلك كانت أغلب الأقوال لدينا إن أثارت الإعجاب فى النفوس ، فهى بعيدة عن أن تتأثر بها النفوس . والإعجاب شىء والتأثر شىء آخر .

أما من يملك ناصية الكلام — عن عقيدته — و يسخره لخدمة وطنه وأمته لا يبتغى بذلك غير المصلحة العامة سيجد — إن عاجلا أو آجلا — آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، ورؤوساً مفكرة ، يعنيها من أمر الوطن ما يعنى به المتكلم . فتستخلص من كلامه ما يروقها ، مما عساه أن يكون فى مقدورها تحقيقه ، وربما تعهدته الهمم العالية ، والأيدى العاملة ، والإدارة الرشيدة بعنايتها ، وأبرزت لنا فى عالم الحقيقة

ما نراه اليوم بعيد المنال ، أستغفر الله ليس فى الوجود شىء بعيد المنال إذا تضافرت عليه الجهود واتجهت له العزائم وتعهدته لهمم .

إن نابليون البطل الإفرنسى المشهور لم يبالغ كثيراً حينما قال : « لا مستحيل فى الحياة » لأنه يعرف ما للهمم العالية من معجزات ، لا يكاد يؤمن بها ضعاف العزائم . إن كل الأمور المشاهدة فى عالم الوجود وكل ما حدث فى الحياة من غير وعبر وكل ما نراه من غرائب وعجائب ، وكل ما استجد على وجه الأرض من مستحدثات ومخترعات لم تكن فى مبدأ أمرها إلا أخيلة تداعب الفكر ، ثم استحالت إلىهواجس ونوازع يعتلج بها الصدر ، فلما أراد الله تحقيقها سخر لها البيان ، فأضفى عليها من أساليبه ما جعل العقول تنصرف إلى التفكير فيها ، والجهود تتكاتف على إبرازها ، وما لبثت بعد أن اعتورتها الهمم ، واكتنفتها العزائم ، أن رؤيت كائنات حية يلمسها الحس وتمتلىء بمرآها النفوس والأبصار .

بعد هذا أرجو أن لا يحمل ما سأتحدث به على أنى أريد بذلك استثارة العصبية الجنسية والإقليمية فى النفوس ، فإن ذلك مالا يستسيغه الفكر العربى الناضج ، ولا يطمأن إليه العقل الإسلامى السليم ، ولا يخطر على النفس الحجازية المشهورة بدعتهاوسماحتها . و إنى أربأ بالسامعين لحديثى — الآن — والقارئين له — فيمابعد — أن يصرفوا كلامى إلى غير الوجهة التى إليها أقصد ، والغرض الذى إليه أرمى ، وأن لا يحملوا كلماتى من المعانى ما لا تحتمله . و إن لى من نبل الغاية وحسن القصد خير شفيع فيما عسى أن يكون لكلامى من الوقع السيىء فى النفوس — ولعلى أكون واهماً فى هذا الذى قدرت — وعلى كل هذه كلمة — و إن طالت — لا بد منها لما سيجره الحديث من شؤون وشجون لأكون قد أديت — سلفاً — بعض ما تقتضيه اللياقة . و إنى جد حريص — كما علم الله ذلك منى — على عدم التعرض لجرح الإحساسات خصوصاً إحساسات إخواننا الذين تشرفوا بالهجرة إلى هذا البلد الأمين واتخذوه موطناً لهم .

سادتى :

إنه — وأيم الحق — ليروع المخلصين من أبناء هذه البلاد المقدسة التى هى مهد العروبة أن يروا طابع العروبة فيها آخذاً فى التقلص والانزواء ليحل محله التذبذب والتبلبل فى جميع الأشياء . وما كان ذلك ليكون لولا إهمالنا أمر المهاجرين . فإن المهاجر يأتى من بلاده مزمعاً الإقامة فى حرم الله ورسوله ، ويقيم السنين العديدة دون أن يفكر فى أن يصطبغ بصبغة البلاد التى آوته وحنت عليه ، واتسعت له ولعياله ، ويظل محتفظاً بشكله وزيه ولغته ، حتى أصبحت بلادنا — كما هو المشاهد — أشبه ما تكون ببرج بابل . ألوان متعددة ، وهيآت متنوعة ، وسحنات متباينة ، ولهجات متضاربة ، وعادات متفاوتة ، وأذواق متنافرة ، وطغيان كل ما هو دخيل عليها ، على كل ما هو أصيل فيها ، وبذلك صرنا لا نعرف بين الناس إلا أننا خليط من الأمم ، ومزيج من المخلوقات ليس لنا كيان وليس لنا مقومات ، والحقيقة إننا افتقدنا مميزاتنا ، ولم يعد لنا سمت خاص نعرف به كما تعرف الأمم والشعوب بسماتها وذلك ما حمل البتنونى على أن يقول عنا « إن أهل مكة خليط فى خلقهم وخلقهم فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولى وبساطة الهندى ، ومكر اليمنى ، وحركة السورى ، وكسل الزنجى ، ولون الحبشى » .

أنظروا أيها السادة إلى هذا الوصف المزرى الذى يتحدث بما وصلت إليه حالتنا وقدروا ما لهذا الوصف من وقع سىء تصطدم به إحساساتنا . ومن منا يحب لأمته أن تكون كذلك ؟ . والبتنونى رحمه الله لم يقتصر على هذا بل أردفه بقوله : — متحدثاً عما رأى وشاهد — « وقد وصل هذا الخلط إلى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلفة من أزياء البلاد الإسلامية . عمامة هندية ، وقفطان مصرى ، وجبة شامية ومنطقة تركية (وأظنه لم ير الفوطة الجاوية) ولا (السلطة) البخارية فلم يذكرها وترى الصانع الفقير يلبس القميص وعلى طوقه الوشى المشغول بالحرير وعلى رجله شىء يشبه الوشى وهو حافى القدم » ثم يقول : « والذى يؤسف له أن هذا الخلط

وصل إلى لغتهم فتراهم يتكلمون بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة أو فارسية أو تركية » وعد بعض ألفاظ ما نزال نستعملها إلى اليوم يضيق المقام لذكرها من أمثال « زهم » و « ندر » وغير ذلك .

وقد وصف تبلبلنا هذا كثير من المؤلفين ممن زاروا هذا البلد وأقربهم الدكتور حسين[1] هيكل فلقد نوه عن تذبذبنا فى أكثر من موضع واحد فى كتابه « فى منزل الوحى » ومما نوه به تذبذبنا فى بناية بيوتنا وما عرف سعادته على أى نسق نعتمد فى هندستها . والحقيقة أننا لا نعرف معه على أى نسق اعتمدت فى هذه البنايات التى تسكنها وإن كان لها نسق تنسب إليه فما هو إلا نسق التبلبل والتشويش والاضطراب . ومن أدق ملاحظات الدكتور ملاحظة فقدان الانسجام بيننا وبين موائدنا التى نتناول عليها الطعام وهو ينوه عن تبلبلنا فى كل شىء حتى فى نفس أطعمتنا ونظام موائدنا وأثاث بيوتنا وكل شىء يصدر عنا ويحيط بنا ، ولم يخف عليه تبلبلنا حتى فى مشاعرنا وإحساساتنا ومجال التفكير لدينا لكنه وهو السياسى المحنك كان لبقاً فى تعبيره وهذا منتهى ما يصل إليه التبلبل والاضطراب وفقدان الانسجام فى أمة من الأمم . ولا أظن أمة فى الأرض وصل بها التبلبل والاضطراب بمثل ما وصلت إليه حالتنا وما أرى الحالة إلا آخذة فى الازدياد والاستفحال وذلك بطبيعة الحال إذ لا يحلو لكل من يضيق بهم ملك الله الفسيح إلا اللجوء إلى الحرمين الشريفين وتلك حال استمر عليها المسلمون واعتادت بها هذه البلاد المقدسة منذ ما افتقدت ذلك الرجل الحكيم الذى كان ينادى فى الحجاج منصرفهم من الحج « يا أهل مصر مصركم ويا أهل الشام شامكم » وزادت الهجرة إلى هذه البلاد فى الآونة الأخيرة بعد أن دهم الاستعمار الأوربى المسلمين بفجائعه وحلت ببلاد الإسلام الوادعة المستكينة النكبات والكوارث .

ولما كنا لا نعير مسألة المهاجرين إلينا التفاتا ـ كما يقضيه الواجب ـ طغت على البلاد وأهلها عادات وتقاليد مختلفة أدت إلى الزراية بنا إذ نرى كل فريق

يحتفظ ـ حال استبطانه البلاد ـ بما ينقله من عادات بلاده وتقاليد قومه حتى كاد أن يمحى طابع العروبة فى بلد العروبة . ونعوذ بالله أن يستحوذ التذبذب على بلد الله الأمين ، و يصير التبلبل شعاراً لهذا الوطن المقدس .

لقد بلغ عدد المهاجرين إلينا من الأقطار الإسلامية فى الأعوام الأخيرة ما يربو على مائة ألف أو يزيدون من الذين أزمعوا عدم العودة إلى بلادهم وهذا عدد ضخم وإذا استمر سيل الهجرة على هذا المنوال فسيبيدنا كما أباد سيل العرم مملكة سبأ فى غابر الأيام . وسوف يندرس ما ورثته البلاد من مميزات سكانها الأصليين ويفنى فيها العنصر العربى ويحل محله خليط من العناصر المتباينة وتفقد البلاد عروبتها وهذا ما لا نرضاه لأرض الحرم و بلاد معد وعدنان .

لا يتوهمن أحد منكم أنى أحبذ منع الهجرة إليها أو إجلاء المهاجرين عنها . فإن بلادنا وبخاصة مكة هى مباءة المسلمين و بلد الله الأمين مكن لعباده فيها حرما آمنا وقال لنا فى حقه (سواء العاكف فيه والباد) ومكة والمدينة لا يضيقان ذرعا بمن يأمهما من المسلمين إنما الذى يخيفنا من هذه الكثرة الساحقة والموجات الجارفة من المهاجرين الذين يتوالون على هذه البلاد الصغيرة فى مساحتها القليلة فى سكانها الفقيرة فى مواردها أن تفقدنا ميزتنا وتطغى على طابعنا وفى النهاية تفقدنا أعز ما نحتفظ به وأكرم ما ندخره لأبنائنا وأخلافنا من بعدنا تلك هى قوميتنا العربية التى هى قوام هذا القطر فى حياتيه الأدبية والمادية وأنه وأيم الحق ليعز علينا أن لا نفكر فى أمرنا وندع الدخيل يهيمن على بلادنا و يسيطر بعاداته وتقاليده على عادات العرب وتقاليدهم فى عقر دارهم ومحل عزهم . وأن الواجب ليهيب بنا أن نعمل بجد لمكافحة كل ما يفسد على البلاد عروبتها ونتعجل فى ذلك قبل أن يستفحل الداء و يعز الدواء فإن العصر الذى نحيا فيه يحب السرعة و يمقت الأناة فى مثل هذه الأشياء . وحالة بلادنا تقضى علينا بذلك . ووضعيتها تحتم علينا أن نتشبث بعروبتها تشبثا لا هوادة فيه ولا تهاون كما تقضى بمحاربة كل

ما يصبغها بصبغة تضعف من معنويتها وتقلل من حرمتها لأن حياتها متوقفة على عروبتها كما هى متوقفة على إسلاميتها . فكما أنها مهبط الوحى ومصدر الرسالة ومأزر الإسلام كذلك هى مهد العروبة وقبلة العرب ووكرهم الذى يستمدون منه الدفء والقوة . والإسلام والعروبة توأمان لا يفترقان ، وصنوان لا يختلفان . فبالإسلام ساد العرب ، وبالعرب عز الإسلام فهم دعاته وحماته وأنصاره ورعاته . وكما أننا لا نتردد فى بذل المهج والأرواح دفاعا عن ديننا كذلك يجب أن نذود عن العروبة بكل مرتخص وغال . ومن أحق بالعروبة من هذه البلاد ؟

أليست هى التى كانت قبلة العرب منذ جاهليتهم إليها يلجأون وعندها يحتكمون وهى التى كانت نفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ؟

أليست هى التى حملت لواء التوحيد ، وجمعت تحته أشتات العرب وأنقذتهم من ضلالتهم ووجهتهم إلى طريق واحد هو طريق الحق والقوة والخير والجمال بعد أن كانوا طرائق قددا وأحزابا وشيعا يتناحرون على القطرة ويختصمون على التمرة ويحتربون على المرعى ؟

أليست هى التى برزت من حولها بفصاحة أبنائها ورجاحة عقولهم ورحابة صدورهم وسعة مداركهم فاختار الله نبيه منها وأنزل كتابه بلغة أهلها ؟

أليست هى التى حملت مشعل الهداية ورمت بأفلاذ أكبادها بين براثن القوى الغاشمة لهداية الناس أجمع فاقتحم أبناؤها السدود وتخطوا الحواجز وخاضوا المعارك حتى أناروا الأرض ورفعوا منار الحق وانتشلوا العالم من غوايته وعمايته ووضعوا نير الطواغيت عن كواهل أمم وشعوب أرهقها الظلم وكاد يفنيها الغشم ويودى بحياتها التعسف والاستبداد ؟

أليس أبناؤها هم الذين أباحوا مناهل العلم لكل الواردين بعد أن كانت محظورة إلا على فئات مخصوصة من الناس . وهم الذين جعلوا الناس سواسية فى الأحكام وأنسموهم نسيم الحرية فاستضاءت بهم الأرض وازدهرت بهم الحياة ؟

أليست هى التى دعت إلى الديموقراطية الحقة وطبقت مبادئها على أبنائها قبل أن تطبقها على الغير فضربت بذلك أحسن الأمثال للناس ؟

يقول الأستاذ الزيات (صاحب مجلة الرسالة) فى إحدى محاضراته التى ألقاها فى بغداد ما معناه « إن كان بدو الجزيرة هم الذين حملوا السلاح وفتحوا الفتوح فإن حضر الحجاز هم الذين حكموا الناس وأقاموا الحضارة ونشروا العلم » .

ومن هم — يا سادتى — حضر الحجاز غير أهل مكة والمدينة يوم كانوا عرباً خلصاً . فأين صفات أهل مكة والمدينة اليوم من تلك الصفات التى كان يمتاز بها سكان هاتين الحاضرتين يوم كان يعمرها بطون قريش وبطون الأوس والخزرج ؟ أين ذلك الصيت البعيد الذى كان لهاتين الحاضرتين والذى كانت تتجاوب أصداؤه فى أنحاء المعمورة فى زمن محمد والراشدين من بعده ؟ من هذا الصوت الخافت الذى لا يتعدى جنباتها ولا يتجاوز رؤوس جبالها ؟ أين تلك الروح القوية التى كانت ترفرف عليهما فى زمن خالد بن الوليد وحمزة بن عبد المطلب وسعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهم من أشباههم من هذه الروح التى تتمثل فيها رقصة الموت ؟

لا جرم إن بلادنا افتقدت كل ذلك مما جره عليها الدخيل الذى ما دفعه إلى الاستيطان بها غير طلب الدعة والعافية أو الغنى واليسار ولم يبق لنا من كل ذلك إلا صبابة من الذكرى نتعلل بها و بقية من أثر العروبة ستفنى وتضمحل إن لم نعمل على تقويتها وتنميتها فى هذه البلاد المقدسة ذات الماضى المجيد والتاريخ الرائع .

***

إننا إذا أردنا أن نبقى أمة لها من تاريخها ما يجعلها تتشبث بالبقاء وتنازع الأحياء الوجود لتعيد ما كان لها من مجد مندثر وعز مفتقد وحق مهتضم فعلينا أن نحرص على كياننا فلا ندع الوهن يتطرق إليه . ونحتفظ بقوميتنا فلا ندعها تفنى فى

قوميات الأمم الأخرى وتذهب بينها شذر مذر . ولا يتسنى لنا ذلك ما لم نجرد سيفاً مصلتاً على هذا التذبذب الذى اعتورنا . ونألوا على أنفسنا بأن لا نغمده حتى يتوارى عن أنظارنا كل ما يشيننا و يزرى بنا و بسمعتنا بين الناس .

ولنترسم خطوات أحد بناة مجدنا وعظمتنا فى المحافظة على قوميتنا ولنتأس بعمر ابن الخطاب فى هذا الشأن فإنه خير أسوة وأحسن قدوة . أنظروا أيها السادة إلى عمر بن الخطاب كيف كان يحرص على القومية العربية ؟ وكيف كان يعمل لصيانتها والمحافظة عليها لتعلموا أن المحافظة على القومية ليست بدعاً من الأمور وما كانت قط شيئاً إداً .

بلغ عمر وهو بعاصمته أن حذيفة بن اليمان تزوج بامرأة نصرانية — لما كان أميراً على الحيرة — فبعث إليه عمر أن طلقها ، فبعث إليه حذيفة بقول له : لا أطلقها حتى تعلمنى أحلال ذلك أم حرام ؟ فأجابه عمر بقوله : لا و إنما لنساء الأعاجم خلابة وأخشى أن يصدوكم عن نساء العرب . فما كان من حذيفة إلا أن طلقها . هـذه القصة تصور لنا مبلغ حرص عمر رضى الله عنه على القومية العربية وكيف كان لا يدع أمراً يشتم منه رائحة العبث بالقومية إلا عمل على إبادته قبل أن يستفحل الداء و يعز الدواء ، فلولا أن عمر كان يخشى إذا هو سكت على زواج حذيفة بهذه المرأة أن يتفشى تزاوج العرب بغيرهم و بذلك يتطرق الوهن إلى جسم العروبة ما أمره بطلاقها ، إذ أن مثل هذا الاختلاط الجنسى يفقد العرب ميزتهم ويبعدهم عن طابعهم و يكونون إلى الانحلال والفناء أقرب منهم إلى الخلود والبقاء ، وذلك ما خشى منه عمر . وحقاً أن عمر كان ينظر إلى الأمور بإلهام من الله ، فإن أمر العرب ما انتهى إلى ما انتهى إليه من زوال حكومتهم وتقلص سلطانهم إلا حينما تهاونوا بشأن قوميتهم ، ولم يحرصوا على مقوماتهم حرص زعمائهم وقادتهم . ولقد فطن هتلر وموسلينى إلى ما فطن له عمر من قبل مئات السنين ، فمنع الأول قومه من التزاوج

بغيرهم ، وأصدر الثانى بعد غزو الحبشة قانوناً يقضى بمعاقبة كل من يتزوج بحبشية من الإيطاليين .

ومن أشد الناس حرصاً على قوميتهم ـ الآن ـ الانجليز ، فهم جد حراص على أن لا يتزوجوا بغيرهم مهما طال بهم المقام فى البلاد التى انضوت تحت نفوذهم ، أو فى البلاد التى ترغمهم المصالح على الإقامة فيهـا ، بينما هم يرغمون من يقيم بينهم على على الاصطباغ بصبغتهم . ولذلك تراهم محتفظين بطابعهم فى كل صقع يحلون فيه .

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يحرص على قومه من أن يدب إليهم من عادات الأمم الأخرى ما يضر بهم و يفسد من طبائعهم و يبعدهم عن مميزات العرو بة التى امتازوا بها عن سواهم ، فكان ينهاهم عليه السلام أن يفعلوا به كما تفعل الأعاجم بملوكها .

فالدعوة إلى الاحتفاظ بالقومية والذب عن الـكيان إنما هو ترسم لتلك التعاليم النبو ية المشروعة وتأسى بتلك الإرشادات العمر ية الحـكيمة .

وليس فى هذا شىء من الرجعية أو دعوة إلى ما يعود بنا إلى الوراء أو إلى ما يعوقنا عن السير فى معركة الحياة الراقية كما قد يتطرق إلى بعض الأذهان بل إن أخذنا بأسباب المدنية الحديثة أو أية مدنية نريدها لأنفسنا لا تتيسر لنا ولا تنتظم لنا حياة سامية ما لم يكن لنا كيان ثابت يتركز عليه أخذنا بأسباب التسامى فى الحياة . وهل يصلح العمل للتسامى مع ما نحن فيه من تبلبل واضطراب ؟ وهل نستطيع تمييز الخبيث من الطيب ومعرفة ما نأخذ وما ندع ما لم نـكون مجتمعاً تسوده الوحدة و يعمه الانسجام . وحينئذ يتسنى لنا أن نعرف ما يتلاءم مع حياتنا وما لا يتلاءم أما مع هذا التبلبل الذى نحن فيه فلا يمكننا عمل شىء البتة ، لان هذا التبلبل والتذبذب المستوليين علينا هما العقبة الـكأداء فى سبيل تقدمنا ورقينا . فإذا لم تزل هذه العقبة عن طريقنا تعذر علينا النهوض على أقدامنا ، وعجزنا عن مقابلة الحياة بما يجب أن تقابل به . وذهبت كل جهودنا عبثاً وقضينا الحياة سبهللا . ألا ترون أن لـكل منا مشر باً

ولكل فريق غاية ، ولكل جماعة رأياً ، وما دمنا كذلك ثقوا بأننا لا نتفق على رأى ولا نصل إلى غاية ولا نحقق أمنية ، وأحر بنا أن لا نعد من الأحياء أما إذا أردنا أن ننتفع بالحياة ونؤدى فيها واجبنا ونشترك مع الأحياء الذين يعملون لرقى الإنسانية ورفع مستواها فعلينا أن نركز أنفسنا على نقطة أساسية لا نصدر إلا عنها ولا نعمل إلا لها ، كما ركز الآباء والأجداد أنفسهم على نقطة معينة ما صدروا إلا عنها ولا عملوا إلا لها فاستقام لهم الأمر وقاموا بواجبهم وأدوا أمانتهم فى الحياة على الوجه المطلوب .

ولا يكافنا ذلك غير العمل على تعريب البلاد وكل ما فى البلاد من ناطق أو صامت وذلك بإحياء الأسماء العربية القديمة فنسمى مواليدنا بأسامة وزهير كما سمى السباعى ابنيه بهما وغير ذلك من الأسماء كقصى ولؤى وكعب وخالد وطارق وزياد ومروان وقيس وهشام ومعد ومضر وعدنان ، هذا للذكور وللأناث ليلى وسعدى ولبنى وهند وثريا وبثينة وعزة وعبلة والرباب ، ولا نقتصر على هذا بل نسمى شوارعنا ومنتدياتنا وميادينا بأسماء المواقع والوقائع التى تجلت فيها بطولة العرب وعظمتهم كأن نسمى هذا الميدان بميدان القادسية وذاك بميدان وقعة الصوارى وذلك بميدان اليرموك والآخر بميدان بدر . وهكذا النوادى وحبذا لو نسمى الأحياء بأسماء القبائل ذوات التاريخ المجيد فى تاريخ العروبة والإسلام ، وللشوارع أسماء الأبطال والقادة من العرب الذين رفعوا لواء الإسلام عالياً . وكذلك من الواجب علينا أن نلغى هذه الألقاب التى نحملها والتى تشعرنا دائماً بأننا مجموعة لا تمت بعضها إلى بعض بصلة ونستبدلها بألقاب تقربنا من بعض ويجب علينا العمل على توحيد الأزياء كما دعا إلى ذلك الأستاذ أبو عبد المقصود ، والذى هو فى الأهمية أولى بالتقديم من كل ذلك لتعريب البلاد إغراء البدو على سكنى الحضر وترغيبهم فى ذلك بكل الوسائل الممكنة ونقل عوائل برمتها ولو بالقوة لإسكانهم فى حواضر الحجاز فإن البدو مادة الأمة ودعامتها وعمودها الفقرى الذى لا يمكن لشعب أن تقوم له قائمة بدونهم إذ يتوفر فى البدو الذكاء والشجاعة والاحتمال والصبر والنخوة والكرم وروح التعاون والتعاضد شائع بينهم يتمثل لكم ذلك فى تعصبهم لبعض . والحق

أن مميزات العروبة وخصائصها لا تتمثل إلا فيهم هذا عدا ما يمتازون به من وحدة الخلق والسحنات وتقارب الألوان والقامات ، وانسجام الأشكال والهيئات ثم هم قنيُ الأنوف مقوموا الحواجب صباح الوجوه خفاف الحركة أقوياء البنية فيهم ظرف ولديهم رشاقة ولا ينقصهم شيء إلا جهلهم بأنفسهم وتاريخهم وما يجب عليهم حيال دينهم وبلادهم وما تتطلبه الحياة السامية منهم . فإذا ما عمل على تحضيرهم وتنمية مواهبهم ولقنوا ماهم بحاجة إليه من علوم ومعارف تكون انا منهم فى الحواضر شعب يستطيع أن يهضم بمعدته القوية كل العناصر الدخيلة ويصهر فى بوتقته كل شيء يغايره ويتنافى على مميزاته وخصائصه ويحيله إلى مادة نافعة فى الحياة .

وتنظيم أمر المهاجرين إلينا تنظيما يفيدهم ويفيد البلاد منهم أمر بالغ الأهمية فعلينا أن نعمل ذلك حالا .

وبذلك يستحيل هذا المجتمع المذبذب إلى مجتمع عربى قح له سمته وله طابعه وخصائصه .

ثم إن على الموكول بهم شأن الفن المعمارى فى البلاد أن يختاروا لنا نسقًا فنياً خاصاً لا نتعداه فى بناية بيوتنا لتكون بناياتنا منسجمة مع بعضها ويكون لنا فى الفن المعمارى سمت وطابع كما كان لآبائنا فن معمارى عليه سمتهم وطابعهم .

وواجب المدارس فى المساعدة على تعريب البلاد عظيم فهى التى بيدها النشأ وأمر تكييفه منوط بها وحدها وتستطيع المدارس أن تخرج لنا من بين جدرانها جيلا يعرف كيف يحتفظ بقوميته وعروبته إذا أذكت فى التلامذة حب العرب والعروبة بتعريفهم ما كان لآبائهم الأقدمين من دولة شامخة وسلطان عريض ونفوذ بلغ الغاية التى ما بعدها غاية وما أشاد أجدادهم من قصور وحصون وما برزوا فيه من علوم وفنون وما كان لهم من صفات حميدة وأخلاق رضية ومزايا هى المثل الأعلى فى السمو الإنسانى وكيف كان عدلهم فى الأحكام وأين كان مجلسهم بين الأنام ؟ وما تركو من تراث ينطق بعلو كعبهم فى كل ما زاولوه من أعمال ولا بد من التنويه بما نال

العروبة والعرب فى العصور الأخيرة من غمط لحقوقهم وعدم العرفان بجميلهم ونكران ما أسدوه للبشرية من أياد بيض ما كان لوجه الإنسانية أن يشرق لولاها ليشب النشء ثائراً قلقاً متحفزاً الاستعادة حقوقه المغتصبة وإعادة مجده القديم .

ومن العوامل الفعالة فى إزالة ما فينا من التبلبل العمل على استثمار هذه الأرض القاحلة باستخراج كنوزها والنبش عن دفائنها والتنقيب عن الثروات والآثار المطمورة والبحث عن العيون المهجورة لإصلاح ما أفسده الإهمال وتصعيد المياه من جوف الأرض بكل الوسائل الممكنة وبناء السدود لإحياء الأرض الموات وتربية الأنعام والمواشى وتنمية الدواجن فإن البلاد إذا استحالت إلى جنان نضرة تطالع سكانها بخضرتها وترندهم بثمرتها تُغْرِى من فيها بالانتساب إليها ووقف حبه عليها .

ولا يفوتنى أن أقول قبل أن أبارح موقفى أننا فى حاجة شديدة إلى تقاربنا وربط أواصرنا ببعض لنحس بإحساس واحد ونشعر بشعور واحد ومن أهم الأسباب فى تقاربنا أن لا يجهل بعضنا على بعض وأن يدعو الأخ أخاه والقريب قريبه والزميل زميله والصاحب صاحبه بأحب الأسماء إليه فإن النفوس مجبولة على حب من يتودد إليها ولو باللفظ الحسن إذا لم يكن صادراً عن غش وتدليس ولكنه صادر عن حب وإخلاص . ومن أقوى الروابط بين أبناء الوطن الواحد المصاهرة وهذه المصاهرة قد تكون متوفرة بين الحضريين إلا أنها مفتقدة بين الحضر والبدو فلنعمل على تمهيد السبيل للتزاوج بين الفريقين لأن هذا البعد بيننا وبينهم جعلنا لا نشعر بما يشعرون وهم بدورهم لا يشعرون بما نشعر بل ربما كان البدوى يحتقر الحضرى ويضمر له العداء وكذلك الحضرى يحتقر البدوى ويضمر له شيئاً يشبه العداء . وما ذلك إلا لفقدان الروابط التى تقربنا من نفوسهم وتقربهم من نفوسنا إما إذا كنا وإياهم مرتبطين بروابط المصاهرة تدب محبتهم إلى قلوبنا وبالعكس وبذلك نستطيع أن نعيش نحن والبدو إخواناً متحابين فى الوطن الواحد والكل منا يعمل لغاية واحدة ثم إن مثل هذه المصاهرة بين البدو والحضر من أهم العوامل فى تعريب البلاد وإزالة هذ

التذبذب المشين لما ينتج منها من نسل لا يتجهم لعروبته ولكنه يعرف كيف يحتفظ بها ويرفع من شأنها .

أيها السادة :

إن الذكريات التى أطافت بى وأنا أسطر هذه المحاضرة أوحت إلى بهذه الأبيات لخاطبت بها هذا الوطن الذى يلذ لى أن أخاطبه كثيراً .

يا موئل الأبرار والـ أخيار يا مثوى الجدود
يا موطن الأبطال والـ قيال والعز التليد
يا مربض الآساد والـ أشبال فى الماضى البعيد
يا مصدر القرآن والـ عرفان والخلق الحميد
اين العروبة فى حما ك لها الجحافل والبنود ؟
اين البطولة والحميـ ة والتسامى للخلود ؟
أنت الذى ملأ البسـ يطة بالجياد وبالجنود
وحططت عن هام الورى نير المظالم والجحود
ورفعت الوية الفضيـ لة فوق ناصية الوجود
وتركت فى كل البلا د مآثر الحكم الرشيد
بادت حضارات الأولى حكموا الممالك بالحديد
وزهت حضارتك التى بنيت على تقوى وجود
لهفى على تلك الجدو د المشرفات على الجدود
ما كنت مذ كانت أوا ئلنا سوى الوطن المجيد
ماذا دهاك بما أرى من ذل عادية الجمود

يا موطن الأحرار ما   عهدى بك الوطن البليد
خذ من فؤادى أو دمى   ناراً إذا عزَّ الوقــود
وحد بهــا شــعباً يكا   د من التفرق أن يبيد

* * *

يا صيحة الوجدان دو   ى فى المغاور والنجود
علَّ الذى نرجوه من   مجد الحيــاة لنا يعود
ونعــود مثل جدودنا   ويعود ماضينا المجيد

شخصية الأمة العربية ومقوماتها (*)

بعد الإسلام

لم يكن للأمة العربية — قبل الإسلام — شخصية عالمية قوية يخشى غضبها ويرجى رضاها ، بل كانت شخصيتها محلية بدائية تسودها الفوضى وتفتك بها الأحقاد ، ويستبد بها الجهل . لا تعنى بأمر العالم ولا يعنى العالم بأمرها ، إلا كما يعنى بالأمم البدائية وسكان المجاهل .

فلما جاء الإسلام أعطاها كل مقومات الشخصية العالمية القومية ، وأخرجها من خلف جبالها إلى الناس برسالة إلهية رفيعة . اعتنقتها ودعت الناس كافة لاعتناقها ، وكانت رسالتها فى الحياة تحرير الأفكار من التجمد ، والضمائر من الخوف والنفوس من الخنوع . ونبذ النعرات الدينية والعنصرية والإقليمية التى بسببها يتعادى الناس ويحتربون ، ودعوة الناس جميعاً إلى وحدة عالمية كبرى ليخلص الناس من الاشتغال بالخصومات السخيفة ، إلى الاشتغال باجتلاء الكون وأسراره ، والكشف عن غوامضه وكنوزه والقوى الكامنة فيه لينتفع الإنسان بذلك وليسخره لمصلحته ليكون بحق خليفة الله فى أرضه ، وليقتنع عقله ببارىء السماء والأرض وما بينهما ، فلا يجعل معه نداً من صنع يده يذل له . « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم . فلا تجعلوا لله انداداً وأنتم تعلمون » . « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله » .

(*) ألقيت هذه المحاضرة بندوة « الأصيفاء » المنعقدة فى دار الدكتور فخر الدين الأحمدى الظواهرى عضو الندوة ليلة الخميس ٢٧/٨/٧١ هـ ٢٣/٤/٥٥ م .

و بدأت الأمة العربية بأصنامها فجعلتها موطىء أقدامها سواء أ كانت تلك الأصنام حجراً أو بشراً ، ومحت الدعوة الإسلامية الفوارق العنصرية ، وألغت التمايز بين الألوان ، فلا ميزة للون على لون « ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « إن أ كرمكم عند الله أتقاكم » ، وأشادت بالعلم وأهله « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » ، وفرضت طلب العلم على الرجال والنساء « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وتركت للناس الحرية فى اختيار النظام الذى يحبون أن يحكموا به ، ولم تقيدهم بشىء إلا بالشورى « وأمرهم شورى بينهم » ، « وشاورهم فى الأمر » . والنظام الملكى فى الإسلام من أسوء نظم الحكم ، لما يصحبه من إذلال الأعزة ، وإفساد الأرض ، واستعباد الناس ، واغتصاب الأموال ، وانتهاك الأعراض « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » ، « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » . ولذلك لم يرضه رسول الإسلام لنفسه ، ولم يوص به أمته من بعده ، ولم يمل إليه أحد من الخلفاء الراشدين ، بل اختاروا نظاماً هو أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى ، ولما أراد سعد بن عبادة أن ينصب نفسه ملكا عليهم قتلوه ، وهو من هو فى صحبته لرسول الله وفضله فى الإسلام و بلائه فى سبيله .

كان من الأمة العربية ذلك فى وقت كانت فيه الدنيا من حولها لا تعرف إلا النظام الملكى فى واقعها . إذ كان سائداً فى فارس وفى الروم وفى غيرها من البلاد . ولما انحرف العرب إلى النظام الملكى فقدوا شخصيتهم ومكنوا للنعرات العنصرية أن تبعث من مقابرها وتعيث فى الأرض فساداً وتشيع فى الدولة العربية انحلالا ، وتحيل الدعوة الإسلامية جدلا وأقوالا .

وقد عنيت الدعوة الإسلامية بكل نشاط حيوى للإنسان ، وأبدت رأيها فيه . ووضعت الحلول الحاسمة لمشاكله ، فحرمت كل ما يضر بالإنسانية جماعات وأفراد .

فحرمت استعباد الإنسان للإنسان أياً كان دينه ، وأياً كان لونه ، وأياً كان مركزه الاجتماعى ، فمن وحى هذه الدعوة قال عمر ابن الخطاب لابن عمرو ابن العاص أمير مصر وحاكمها حينما ضرب القبطى : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وأعطى السوط للقبطى وقال له اضرب ابن الأكرمين .

وساوى الإسلام فى القضاء بين الرجل والمرأة ، والحاكم والمحكوم ، وتدرج فى إبطال الرق كما هو اسلوبه فى حل المشاكل الإنسانية . وأبطل الربى والميسر ، وحرم الاحتكار والاكتناز ، وجعل للسائل والمحروم حقاً معلوماً فى أموال الأغنياء . « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وجعل للخادم والأجير حق التساوى مع مخدميهما فى المأكل والمسكن والعلاج والتعليم ، ولم يحظر على الخدم والأجراء ممارسة أى نوع من أنواع العمل حتى الحكم إذا أبدوا صلاحيتهم له وأنتخبهم الناس .

وترك للمرأة الحرية الكاملة فى اختيار الزوج وامتلاك المال واستثماره وساوى بينها و بين الرجل فى كل ذلك وهى تقف أمام القضاء مع الرجل موقف الند للند . وهو أن أنقصها فى الميراث إن كان لها شركاء فيه من الرجال فذلك لأنه لم يكلفها قط بالنفقة على أحد بل ألزم الرجال بالنفقة عليها . وترك لها حرية قبول تلك النفقة أو رفضها . و إن جعل شهادتها أقل من شهادة الرجل فلأن ما تعانيه من آلام الحمل والولادة . وما تدره من لبن وما تنزفه من دم قد يجعلها تنسى بعض الدقائق التى تقتضيها الشهادة . أمام القضاء والقضاء دقة وتحرى ونزاهة واحتراز .

وحرية العقيدة . فى الإسلام مكفولة فهو لا يكره أحداً على ترك عقيدته . « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وكذلك حرية العمل مكفولة فى الإسلام « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » والإسلام لا يغمط حق المحسن فى عمله أياً كان دينه أو لونه أو جنسه « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . وحدود الإسلام لا تطبق إلا إذا أديت التزامات الإسلام فالسارق لا تقطع يده فى مجتمع مختل الموازين لا تسوده العدالة الاجتماعية الحقة .

وعقاب جريمة الزنا لا ينفذ إلا بشهادة أربعة شهود عدول شهادة لا تتحقق إلا على مستهتر داعر مستخف بالآداب العامة غير محترم لشعور الجماعة غير مبال بحرمة المجتمع الذى يعيش فيه . وجعل الإسلام حدوداً للحاكم يجب أن لا يتعداها. فلا يستأثر برأى ولا بمال ولا بحكم ، ولا بأسرة ، ولا بطائفة أو رهط يركبهم أعناق الناس ثم أوجب على المحكومين طاعته . فإذا أخل بالتزاماته . وتعدى حده فلا طاعة له على أحد . بل أوجب تنحيته من الحكم ولو بالقوة . وقد نحى المسلمون عثمان بن عفان عن الخلافة بالقوة . لما قيل أنه استأثر بأموال الدولة ووظائفها فوجهها لأقربائه . وعلى كثرة ما قيل فى هذه الواقعة . فإننا إنما نسوق سالفة سلفت لأمة العرب حينما كانت محتفظة بمقومات شخصيتها . التى برزت بها على العالم .

ومن المقومات الشخصية للعرب أن طالب الولاية لا يُوَلى . حرصا على حرية الناس من أن يتولى أمورهم من يرغمهم على ولايته بالقوة أو بالمال أو بغير ذلك من أنواع القدرة وحينما قال بعضهم لعبد الله بن عمر : أمدد يدك نبايعك على الخلافة قال : والله لو أعلم أن عنزتين تنتطحان على توليتى الخلافة ما قبلتها فكيف أقبلها ولم يجمع الناس على ذلك ؟ — أو كما قال — ويقول أبوه يكفى من آل الخطاب عمر والله لا أحتملها حياً وميتاً . بهذا و بأمثاله من المثل العالية التى اعتنقتها أمة العرب وعاشت لها وماتت فى سبيلها تكونت شخصيتهم العالمية القوية ، تلك الشخصية التى صهرت فى بوتقتها كثيراً من الأمم واللغات . واحالتها إلى أمة عربية ذات لسان عربى مبين . والتى بلغت فى عصرنا سبعين مليوناً من الأنفس تسكن فى رقعة تمتد من بوغاز جبل طارق إلى منتهى الخليج الفارسى غرباً وشرقاً . ومن جبال الأحقاف إلى جبال الأناضول شمالا وجنوباً . ويتخذ أربعمائة مليون مسلم فى شتى أنحاء الأرض من موطنها قبلة ومن مجموعتها قدوة . ولكن هذا الامتداد فى الرقعة وهذه الكثرة فى العدد . فى حالة مؤلمة . فهى الآن . كما كانت قبل الإسلام أمة لا شخصية لها. تسودها الفوضى وتفتك بها الأحقاد ، و يستبد بها الجهل. فبعض بلادها تعانى الاستعمار المباشر بكل ما فيه من وقاحة واستهتار . و بكل ما فيه من وحشية وغلظة وذلك

فى شمال أفريقيا ، وفى البلاد الواقعة على ساحل الخليج الفارسى وفى أطراف اليمن . وبعضها يتمثل فيها الاستعمار بمثل ما كان يتمثل فى حكم الروم للشام بواسطة الغساسنة ، وحكم الفرس للعراق بواسطة المناذرة ، وحكم الحبشة لليمن بواسطة الأبارهة . وبعضها تتمثل فيها الحيـاة المستقلة استقلال سكان قلب الجزيرة العربية فى جاهليتهم . مع الفارق الذى أحدثه التطور العلمى والسياسى والاجتماعى فى حياة الناس لقد فقدنا مقوماتنا الشخصية ، ولم تعد لنا أى مقومات شخصية نقف بها فى معترك الحياة ، فالمسلم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه لأنَّ هذا الاسم أصبح علماً لـكثير من البلبلة والغموض فى أذهان معتنقيه . وأصبح داعية الإسلام بيننا رجعيا متعصبا ، وداعية العروبة مأفونا جاهلا ، وداعية الرأسمالية عبدا خائنا ، وداعية الشيوعية يساريا متطرفا ، وداعية الحرية زنديقا متبجحا ، وداعية الاستسلام للأمر الواقع انهزاميا أحمق ، وداعية العلم مارقا ملحدا ، وضاعت الحرية وضاع الإسلام وضاعت العقيدة ، وضاع العلم بين تناكر الدعوات وصراخ الدعاة . واقتنصت منا فلسطين . واستشهد منا شباب وكهول بسيف الخـداع والتضليل على أرضها وشتت شمل مليون عربى من أبناء فلسطين . وبكينا المأساة كأحر ما يكون البكاء وبينما نحن شرقى بالدموع يحالف نورى السعيد الغرب . ويهدد الأتراك سوريا . وتتوالى علينا لطمات إسرائيل ، ولا ندرى ما سيأتى به الغد .

* * *

لمـاذا يستهتر العالم بنا فلا يستمع لشكوانا المـكرورة ؟ ولمـاذا تستعمر فرنسا شمال أفريقيا ولمـاذا يهددنا الأتراك فى سوريا ؟ ولمـاذا تـكون أطراف اليمن مهاداً للإنجليز ؟ ولماذا يعتبر الخليج الفارسى منشا ثانياً لبريطانيا ؟ ولماذا يكفر نورى السعيد بنا وهو منا ويؤمن بالغرب ؟ وأخيراً لماذا ينقسم العالم إلى كتلتين ونحن بينهما كالـكرة بين أقدام اللاعبين ؟

أجوبة هذه الأسئلة تـكمن فى شىء واحد هو أن الأمة العربية فقدت كل مقومات الحياة الصحيحة وبذلك فقدت شخصيتها فهانت على نفسها وهانت على الناس

فنحن لسنا ديمقراطيين ، ولسنا شيوعيين ، ولسنا يهودا ، ولسنا إسلاميين ، و بالتالى لسنا عر با . فليس لنا عقيدة نتحمس لها . وليس لنا مقومات شخصية نرتكز عليها ، أليس هذا هو الواقع المؤلم ؟ أليس الحاكم خصم للمحكوم ؟ والمحكوم يتربص بحاكمه الدوائر والمجتمعات تعيش فى بلبلة فكرية وعقيدية و إدارية ، وموازين العدالة مختلة . ووجهات النظر فى الدين مختلفة . ونظمنا القضائية متناكرة . والحريات مقيدة ونظم الحكم استبدادية فى شتى ألوانها ، والحدود فى بعض بلادنا تقام على الضعفاء ولا تقام على الأقو ياء ، وتحارب بعض الفنون والعلوم كما يحارب الرجس والمنكر و يضطهد أصحابها . والنَّعرات القبلية سائدة فى بعض بلادنا والطائفية فى بعضها الآخر . والأهواء دين متبع ، والحكام آلهة يجب أن تعبد . وعلماء الدين سدنة الآلهة المقدسون الذين يجب أن تلغى أمامهم العقول وتقدم لهم المواهب والملكات الإنسانية قرابين يتصرفون فيها كما يشاءون ؟

والكتلة الشرقية والكتلة الغربية والصهيونية العالمية تعرف ذلك بل هى أحَدُّ بصراً منا لذلك . ومن ذلك وجدت الثغرات التى تنفذ منها الصواريخ المدمرة . وتصيبنا فى مقاتلنا . ألم نسمع كثيراً من الاستعمار الغربى وهو يتشبث بالبقاء فى بلادنا أنه يقيم لحماية العرش . أو أنه يقيم لأن المستوى المعيشى فى بلادنا منحط و يخشى من تفشى الشيوعية فيه فبقاؤه لم يكن إلا لرد هذا الخطر . أو بقاؤه للمحافظة على الأقليات أو بقاؤه لرد عدوان المعتدين بحجة أنه ليست لنا القوة العسكرية الذى يطمئن إليها . أو أننا لسنا أهلا لحكم أنفسنا بأنفسنا فوصايته ضرورية علينا ؟ أو ما شابه ذلك من ذرائع ما كان له أن يتذرع بها . لولا أنه وجد الثغرات التى تسوغ له مثل هذه الذرائع التى يسومنا الخسف بمنطقها . وهو يعرف أنه يقول هذا الكلام لأمة فقدت كل مقوماتها الشخصية . فالمقومات الروحية قد كفرت بها أما المقومات المادية فليس لها منها غير ما يراه لدى زعمائها وقادتها والمهيمنين عليها من كرسى الحكم الفخم ، أو الملابس المزركشة ، أو الأوسمة البراقة ، أو القصر الشامخ أو الدارة

الأنيقة . أو غير ذلك من مظاهر الفخفخة الزائفة . وذلك لا يغنى شيئا فى إثبات الشخصية ومواقف الشرف والكبرياء .

* * *

هذه كلمة ، استعرضت بسرعة فى صدرها المقومات الشخصية التى جاء بها الإسلام وأبرز بها الأمة العربية للناس وجعل منها أمة ذات شخصية عالمية قوية بعد أن كانت أمة بدائية محلية لا خطر لها ، وأبنت بعد ذلك كيف تهافتت شخصيتها وعادت سيرتها الأولى بعد أن تنكرت لمقوماتها حتى هانت على نفسها وهانت على الناس ، واجترأ عليها البعيد والقريب ، واقتنصت أراضيها ، وهى مهددة فى ما بقى منها .

وأنا إذا أعرض ذلك فإنما أعرض الواقع كما هو فى نظرى ، وأرى أن العودة إلى مقوماتنا الشخصية التى جاء بها الإسلام هو العلاج الوحيد للخروج من المحنة التى نحن فيها ، وهى وجهة نظر أعرضها لمناقشتها ، فإننا الآن فى وضع لا يستدعى منا الجدل وإنما يستدعى منا العمل ، ونحن فى ظلال ثورة مصر وما تحمل فى فلسفتها من اتجاه سليم ، وآراء سديدة ، وآمال يتمنى المخلصون للعروبة أن تتحقق ، يجب علينا أن نسهم بأفكارنا فيما نراه مخرجاً للأمة العربية من محنتها ، والله من وراء القصد وهو ولى المخلصين .

أتأكل الرطب ؟

— أتأكل الرُّطَبَ ؟

— إنه غذائى الطبيعى .

— أيهمك أن تنتعش زراعة النخيل ؟

— بالتأكيد .

— أتحب من يصنع ذلك أو يسخطك صنيعه ؟

— بل يسعدنى ذلك .

— ماذا تصنع بمن يجتث النخل . ويمنعك من زراعته ؟

— أضرب على يده .

— ولم تصنع به ذلك ؟

— لأنه معتد أثيم يريد أن يفقدنى ثروتى ورخائى .

* * *

— إنك إلى الآن تجيب أجوبة صحيحة ولكنى أريد أن أسألك أسئلة أخرى

— تفضل .

— أبدوى أم حضرى أنت ؟

— بدوى .

— بم تبنى منزلك ؟

— بالشعر أو باللبن .

— أتود أن يكون لك بيت مبنى بالأسمنت والحديد .

— كيف لا أود ذلك ؟

— وإذا بنى لك هذا البيت أتحجم عن إضاءته بالكهرباء ؟

— لا .

— أتحجم عن الصعود إلى صديقك فى الدور العاشر بالمصعد ؟

— لا .

— أتحجم عن امتطاء القاطرة والباخرة والسيارة والطيارة لقطع المسافات البعيدة ؟

— لا .

— أتحجم عن استماع المذياع ؟

— لا .

— أيسرك أن يكون بمنزلك مكيفات هواء وفيرجيدير ؟

— نعم .

— أتحب لأمتك أن يكون لديها من قوة الطاقة ما يجعلها فى منعة ورخاء ؟

— أحب .

— أتحب أن تتكلم مع النائين عنك بماركونى ؟

— أحب .

— أترى لو مرضت — لا قدر الله — وقيل لك إن علاجك لا يحتاج إلا إلى بضعة حقن تحت الجلد أو فى العضل أو فى الوريد ، و بضعة حبوب من الفيتامينات المتنوعة أتحجم عن العلاج أو تقبل عليه ؟

— أقبل على العلاج برغبة شديدة .

— أتستعمل المطهرات ومبيدات الحشرات حرصاً على النظافة والصحة ؟

— نعم .

— ألا ترى فى استعمالك لكل ذلك واستخدامه لمصلحتك ورفاهيتك كفراً بالله أو خروجاً عن دينك ؟

— لا .

— ألا تعلم أن كل ذلك من عمل الإنسان المتعلم المستنير ؟

— أعرف ذلك .

— أتود لنفسك أن تكون متعلماً مستنيراً مثله .

— لا أود فقط بل أريد بذل جهدى وطاقتى لأكون مثله .

— أتعرف أن كل ذلك نتيجة لعلوم شتى منها الفلسفة والمدنى والفلك والطبيعة والكمياء والطب والتصوير والموسيقى والحساب والرياضيات بأنواعها .

— لا أعرف منها إلا أسماءها وأود لو تعلمتها لأكون ملماً بها .

— كيف تتعلمها . و بعضهم يحرمها و يقول إنها كفر ؟

— ومن هذا البعض الذى يحرمها ؟

— يزعمون أن هذا البعض من العلماء .

— أيمتطى هؤلاء العلماء السيارة والطيارة والباخرة والقاطرة ؟

— نعم يمتطونها .

— أيستمعون إلى المذياع ؟

— نعم إنهم يستمعون إليه ؟

— أيتكلمون فى ماركونى ؟

— نعم إنهم يتكلمون .

— أفى منازلهم مصاعد ؟

— نعم .

— وفيها مكيفات هواء وفريجيديرات ؟

— نعم فيها بل إنها لا توجد فى أكثر البيوت ولكنها توجد فى بيوتهم .

— أيعالجون أنفسهم بالطب الحديث ؟

— لا يعالجون أنفسهم إلا فى أعظم المستشفيات وأرقاها .

— أيخضعون لأطباء أعظم المستشفيات ؟

— هم تحت أيديهم كالخشبة فى يد الصانع .

— أيستمعون إلى الموسيقى ؟

— إنهم مغرمون بها .

— كيف يبيحون لأنفسهم أكل الرطب ويجتثون النخلة من الجذور ؟

— هكذا منطقهم .

— إنهم ليسوا علماء إذاً ؟

— فماذا تسميهم ؟

— أسميهم البلداء .

— لماذا نسميهم بهذه التسمية ؟

— لأنهم يريدون أن يأكلوا ولا يريدون أن يحتطبوا أخزاهم الله .

عمر بن أبي ربيعة

مقــــدمة(*)

إذا كانت الخرائب وتلال الأقذار التي امتلأ بها التاريخ مثوى العناكب والحشرات التي أفسدت علينا حياتنا الصحيحة فإن في هذا التاريخ نفسه أدوات التطهير التي إذا أحسنا استعمالها ظفرنا بحياة صحيحة سليمة مبرأة من العيوب والأقذار .

فالماضي بكل ما حوى من صدق وكذب ، وخطأ وصواب ، وغلو واعتدال ، المادة الأساسية التي نستبين من خلالها مواقع أقدامنا ، فلا نضعها إلا على أرض صلبة ، لأننا بقراءة التاريخ نستطيع تجنب الأخطاء والتعرف على مواقع الإصابة .

ونحن الآن نعيش في عصر واع لا يقتنع بكل ما يقوله التاريخ على أنه حقيقة لا تقبل المناقشة ، فقد مضى عصر التقديس لـكل شيء ، وأصبحنا في عصر التحليل والتشريح ، فمن كان يستحق التقديس قدسناه ، ولو نعته الماضي بأنه شيطان رجيم ، ومن لا يستحق التقديس وضعناه تحت أقدامنا ، ولو أضفى عليه الماضي كل ما لديه من هالات الإجلال والتفخيم .

ولذلك فإن من الخطأ أن نهمل الماضي ، أو نصغي لمن يقول لنا : علينا أن نذر الماضي ونتطلع للمستقبل ، إن قائل هذا لا يعني ما يقول : أو هو لا يتبصر ما يقول : كيف نستطيع إهمال الماضي وفيه الحجة ، ومنه الغذاء ، وفيه الاستثارة ؟ وهل نستطيع معرفة الجديد دون أن نستعرض القديم ؟ ومن أحداث الماضي نتبصر ما سيأتي به المستقبل . وإذا كفر كل الناس بالتاريخ ، فإننا كأمة عريقة ذات أمجاد تالدة لم تخل منها بقعة من بقاع الأرض ، لا يمكننا أن نـكفر بالتاريخ إلا إذا أمكننا أن نـكفر بأنفسنا .

(*) حينما صدرت هذه المحاضرة في كتاب مستقل قدمت لها بهذه المقدمة وأنا أثبتها هنا ، لضرورة إثباتها .

والشعب الحجازى لم يكن شعبا سطحيا أو شعبا مستحدثا ، وإنما هو شعب تأصلت جذوره فى أعماق الحضارات الإنسانية

وإذا أخرجنا الشعب الحجازى من تاريخه أخرجناه من الوجود الإنسانى ، إذ هو فى حاضره اليوم لا يستند فى إثبات وجوده على شىء ، فاسهامه الماضى فى بناء الحضارة الإنسانية هو الذى جعل له كيانه الخالد بين الشعوب الحية ، ولا يمكن للحضارة الإنسانية الحاضرة أو المستقبلة أن تستغنى عما قدمه هذا الشعب العريق من زاد هو اللباب لكل حضارة فى أى ركن من أركان الأرض .

إذاً فلابد لنا من الرجوع إلى الماضى . ولابد لنا من الوقوف أمامه وقفة طويلة إذا أردنا أن نثب إلى مكاننا الطبيعى بين شعوب الأرض قاطبة ، وبقدر ما نبعد عن تاريخنا يكون بعد المسافة بيننا وبين مكاننا الذى يجب أن نتبوأه بين الناس .

إن الذين لا يحبون أن نعود إلى التاريخ يريدون أن نسير فى ركب الأحياء ، كما تسير الأمساخ فى (السيرك) تلك التى لا تثير فى النفوس غير الهزء والسخرية ، أو العطف والإشفاق . ثم لا شىء إلا أن ينفحونا بما تجود به أنفسهم الكريمة أو اللئيمة كأجر لما قضوه معنا من أوقات الفراغ طلباً للتسلية والترفيه .

يجب أن نعرف من نحن ؟ ولا نعرف من نحن إلا من تأريخنا ، وإذا عرفنا من نحن نعرف أى طريق نسلك ، وأى هدف نريد . وسوف لا يكون حينذاك هدفنا كهدف صاحب (السيرك) الحصول على عدد كبير من المتفرجين ليحصل على كمية كبيرة من النقود ، كلا ، فسيكون هدفنا أسمى من ذلك بكثير .

دفعنى لأن أقول هذا فى مقدمة محاضرتى عن عمر بن أبى ربيعة بعض الناس الذين هم كالنعامات ليس لها خفة الطيور ، وليس لها صلابة الجمال ، ويدسون أنوفهم فى كل شىء وهم لا يحسنون صنعاً ولا يحملون بوجودهم مجلسا إلا مجلسهم فى حدائق الحيوان .

* * *

إن لنا خصائص ومميزات . وهذه الخصائص وتلك المميزات تكمن فى تأريخنا ، فإذا افتقدنا خصائصنا ومميزاتنا انعدمت الفائدة من وجودنا لأننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نفرض شخصيتنا على أحد ، أو نثبت وجودنا — عند اللزوم .

ونحن لا نستطيع أن نقتبس من حضارات الأمم المختلفة ما يفيدنا ، إلا إذا عرفنا ما يصلح لنا ، وما يجمل بنا ، وما يتفق مع أمزجتنا ومشاعرنا ، وموروثاتنا وتقاليدنا .

والذين يقولون لنا إن على أمزجتنا ومشاعرنا أن تتكيف بما يتلاءم وحياة العصر الحديث دون أن نتقيد بشىء من القديم ، يحكمون علينا بفناء الشخصية أو بمسخها على الأقل ، وهذا مالا يرتضيه لأمته وشعبه ونفسه ، إلا كل من كفر بأمته وشعبه ونفسه .

نحن عرب ومسلمون . والعروبة والإسلام لا ينفران من كل حسن وصالح . ولكنهما ينفران أشد النفور من إمحاء الشخصية العربية الإسلامية واندماجها فى غيرها ، بحيث لا تصبح لها علامة فارقة تميزها عن سواها .

إن الله خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف مع بعض ، لا لنندمج فى بعض ، أو نفنى فى بعض . علينا ألا نتنكر لحضارة من الحضارات الإنسانية . ولكن علينا ألا نتنكر لأنفسنا أولا وقبل كل شىء . لقد قابل آباؤنا فى عصورهم الذهبية حضارات الهند والصين والرومان والفرس والمصريين ، فلم يتنكروا لها ، ولكنهم هضموها ، ثم طبعوها بطابعهم العربى الإسلامى ، فأفادوا واستفادوا ، وكذلك فعل الغرب فأخذ من حضارتنا العربية الجيد والنافع وصبغه بصبغته ووضع عليه طابعه . واحتفظ آباؤنا بشخصيتهم وأورثونا إياها . وعلينا أن نتأسى بهم فنقبل على هذه الحضارة الغربية الجارفة إقبال من يعرف ما يجب أن يؤخذ ، وما يجب أن يلفظ . ولا نقسر أنفسنا على قبول ما لا يتفق وموروثاتنا ، من مباذل المدنية الغربية وما فيها من سخف وحطة ورقاعة وتضليل وغدر إلخ و بذلك نستطيع أن نسهم إسهاما فعالا فى بناء الحضارة الإنسانية ، أو فى بناء الجانب الإنسانى الرفيع المشرق فى الحضارة الإنسانية العامة ،

ونورث أبناءنا والأجيال المقبلة شخصيتنا التى ورثناها عن آبائنا ، كما نورثهم بذلك مجد المساهمة فى دفع المواكب الإنسانية إلى السمو والكمال .

* * *

والآن ستجد أيها القارىء العربى المسلم قطعة من تاريخنا ، أقدمها لك فى محاضرة موجزة ألقيت فى رابطة الأدب الحديث بالقاهرة بقاعة بطل الحرية « عرابى » المفترى عليه .

وسوف تجد فى تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازى ، تطورات المجتمع فى فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذى قام بنشر الدعوة الإسلامية ، فأقام دعائم الوحدة الإنسانية على أسس قوية خالدة ونشر لواء العدالة والحرية والمساواة بين أجناس عامة البشر ، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم ، وكيف كانت كلمات الإيثار ، والإخاء ، والإخلاص ، والمبدأ ، والعقيدة ، والتضحية ، وكل المعانى الإنسانية الرفيعة ، شخصيات تسير فى الحياة وتحقق معانيها بالأعمال ، ثم كيف استحالت تلك الشخصيات إلى كلمات لا نجدها إلا فى المعجمات والقواميس . أما مفاهيمها فلم نعد نرى لها أثراً فى الناس على كثرة من يرددون هذه الكلمات ويتشدقون بها كلما اقتضاهم أمر من الأمور الدنيا ، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازى ، ولعلك تعرف أسباب تطوره ولعلك تجد شبها بين تطوره فى ذلك العهد وتطوره فى العهد الحاضر ، ولعلك أيضاً تلمس الفارق بين التطور فى كلتا الحالتين الماضية والحاضرة ، وكيف استطاعت العبقرية الحجازية قديما أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور فتسهم فى بناء الحضارة من الناحية الفنية ومن الناحية الفقهية . وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنِّى فى الشعر والغناء والموسيقى وابتكارهم فى هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً خالدا ما زال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور ، كما تركوا لنا تراثاً فقهيا خالدا ، لم تستطع المدنية الحاضرة أن تصل إليه فى أسمى تشريعاتها . وكيف احتفظ لنا تأريخ تلك الفترة بنماذج

آدمية بلغت فى الخلائق الإنسانية المثالية حداً لم يطاولهم فيه أحد حتى اليوم ، مما يجعلنا نؤمن بأن النبوغ الحجازى نبوغ قوى متفتح إذا انسد أمامه طريق لا ييأس ولا يقنط ، ولا يخنع ولا يتواكل ، وإنما هو يسلك سبلا أخرى ، ويثبت أنه قادر على التفوق فى كل الأعمال التى تزاولها الإنسانية الذكية النابهة ويبرز فيها بروزاً كبيراً يسجله له التاريخ ويحتفظ له به احتفاظ المقدر المعجب المستفيد .

وسوف تجد فى حياة عمر بن أبى ربيعة وحياة أسرته ما يحيى فيك الأمل ، ويشيع فيك البهجة ، ويطرد عنك اليأس . لتعلم أن الحياة لا تضيق إلا فى وجه العاجز ، ولا تتعسر إلا على البليد . ولن تستطيع الحياة أن تمحو من صفحاتها إلا الأغبياء ، أما الأذكياء النابهون فليس فى ميسورها أن تغض نظرها عنهم ، ولو تجاهلهم كثير من أشباه الأحياء .

لم يجد عمر مجالا للسياسة والإدارة فى دولة الأمويين يصول فيه ويجول ، كما وجد أبوه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وفى عهد أبى بكر وعمر وعثمان إمارة يقضى عمره فيها . كما أنه لم يجد مجالا له فى دولة الزبيريين كما وجد ابنه وأخوه سبيلا إلى تولى الإمارة على عهد عبد الله بن الزبير ، فأنشأ للفن دولة وجلس بمفرده على عرشها . فكانت أخلد من آثار الدولتين الأموية والزبيرية ، والناس إذ يذكرون ابنه وأخاه اللذين توليا الإمارة ، فإنما يذكرونهما عرضا فى الحديث عن عمر بن أبى ربيعة .

ذلك هو شاعرنا الحجازى الخالد . الذى ما زال الناس يعنون به ويتحدثون عنه ، ويؤلفون المجلدات الضخمة عن حياته ، وعن شعره ، وعن فنه .

وسوف لا نكتفى الأقلام بما كتب عن عمر . وسوف تتحرك أقلام وأقلام للكتابة عنه ، وإنى إذ أقدم لك فى محاضرتى هذه نبذة عن عصر عمر ، وتاريخ عمر ، وشعر عمر ، فإنى إنما أقدم لك حديثاً موجزاً عن تاريخ الوطن الأول للعروبة والإسلام فى فترة من فتراته مشاركة منى للباحثين فى جلاء بعض النواحى التى قد تكون غامضة علينا بعض الشىء .

ولعلك واجد فى محاضرتى شيئاً لم تجده فيما قرأته عن عمر فى كل ما كتب عنه .

ولعل كاتباً حجازياً آخر يقوم بجلاء بعض الغوامض التاريخية فى بلادنا ، فإن الكاتب الحجازى والأديب الحجازى قدير على أن يجلو من تاريخ بلاده وموطنه ما قد يعجز عنه غيره لأنه ابن البيئة الحجازية وربيبها وأهل مكة أدرى بشعابها[1] .

وفى تاريخنا حياة عظيمة رائعة مطوية تدعونا بالحاح إلى بعثها ونشرها ، فحبذا اتجاه أقلام الكتاب وجهود الباحثين إليها والاستجابة لدعوتها . فإن ربحنا من ذلك سيكون وفيراً جداً لأن بلادنا غنية بأمجادها ، غنية برجالها . كما هى غنية بكنوزها وخيراتها .

وقد رأينا فائدة النبش عن كنوز البترول وكيف طفرت بلادنا طفرة اقتصادية مما جعل لها دوياً فى أركان الأرض ، ولفت إليها أنظار المستغلين وعشاق الارباح . فلماذا لا ننبش عن تراثنا الفكرى والأدبى والروحى ، وهو أكرم وأعز وأثمن من ذلك فى وزن الحياة الصحيحة والأحياء الخالدين .

وسيكون ربح الإنسانية الروحى أعظم من ربحها المادى .

وما أخالك ياابن العروبة عامة ويا ابن الحجاز خاصة إلا مؤمنا بنفسك وبموطنك وبتاريخك وموروثاتك إيمانك بالله ؟

---

(١) وقد أثبت هذا ما كشف عنه الأستاذ عمر رفيع من الغوامض التاريخية والمحلية فى مؤلفه (فى ربوع عسير) وصحح كثيراً من لأخطاء التى وقع فيها كثير من الذين كتبوا عن عسير لأنهم لم يكونوا من أبناء البيئة . وكذلك ما كشفه لنا الأستاذ أحمد سباعى فى كتابه (تاريخ مكة) وما جلاه لنا الأستاذ محمد بن بليهد فى سفره (صحيح الأخبار) وحقق هؤلاء المثل « أهل مكة أدرى بشعابها » .

عمر بن أبي ربيعة (*)

عصر عمر ومجتمعه :

يقتضيني الحديث عن عمر بن أبي ربيعة أن ألم إلمامة موجزة بعصره ومجتمعه لنعرف الأسباب التي كونت منه زعيما للشعر الغنائي في الأدب العربي .

فإن الحجاز — الذي هو موطن الشاعر — بعد أن قام بأداء الرسالة التي وكل الله إلى أبنائه نشرها على العالم واطمأن إلى أن العقيدة الإسلامية قد استقرت في قلوب الملايين من أبناء الأمة العربية ، وغيرها من أبناء الأمم الأخرى .

وأن دعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد احتلت رقعة كبيرة من الأرض وتجاوبت أصداؤها في أركان المعمورة . وأخذت الأموال والسبايا تتقاطر على مدن الحجاز حتى أصبح الناس في حالة من الغنى واليسار لم يكن لهم بها عهد من قبل .

بدأت ظلال المادية القاتمة تغزو الاشراقات الروحية التي بعثها الإسلام في القلوب والعقول . وأخذ سحر المثالية في الأقوال والأعمال يفقد تأثيره القوى الأخاذ . وجنح الناس ، أو جنحت بهم المطامع والشهوات إلى الاستزادة من الثراء ، والاستكثار من الدور والقصور ، والضياع والبساتين ، والعبيد والإماء ، وما يتبع ذلك من كل ما تستدعيه حياة المنافسة والمكاثرة . وما تستلزمه مظاهر الأبهة والترف . والنتيجة الطبيعية لهذا كله احتدام الصراع بين الأسر الكبيرة ، والعصبيات القوية . فتُنبش الأحقاد القديمة ، وتوغر الصدور وتثار النفوس . وقد كان . ودخلت البلاد في سلسلة من الثورات والحروب الداخلية كانت نتيجتها أن قتل عثمان بن عفان واغتيل على ابن أبي طالب رضي الله عنهما .

(*) هذه المحاضرة ألقيت في ندوة رابطة الأدب الحديث بالقاهرة عام ١٣٧٤ هـ .

وباغتيال على كرم الله وجهه انتهى أمر الشعوب فى حكم نفسها ، وبدأ أمر الأسر فى حكم الشعوب ، وبعد أن كان المسلمون يحاربون الكسروية والقيصرية ، أصبحوا يحاربون بعضهم بعضاً عليها[1] .

وانتقلت ميادين الصراع فى سبيل الفكرة والمثل الأعلى من ميدانها ، إلى ميادين الصراع فى سبيل المغانم والسلطان . ومن طبيعة الصراع فى هذا السبيل أن تستخدم كل الوسائل فى سبيل الغلبة والنصر . دون مراعاة لخلق أو دين . وإذا تمت الغلبة لأحد الفريقين استخدم الفريق الغالب كل الوسائل التى انتصر بها على خصمه فى تثبيت نفوذه . وتدعيم سلطانه . ليضمن البقاء له ولأسرته أطول مدة ممكنة . ويصبح ذلك هو الغاية التى يجب أن تعمل له الدولة . فتنفق الأموال بغير حساب — لا على مرافق الدولة — بل على الأنصار والمشايعين . وتسند الوظائف الكبيرة إلى الأقرباء والموالين — دون ما نظر إلى جدارة أو كفاءة — إلا ما قد يجىء عرضاً غير مقصود . وتنجم من هذا التصرف فى المجتمعات التى يسودها هذا النظام إلى جانب الطبقة الحاكمة ، طبقة الأشراف ، أو ما كنا نسميها إلى أمد قريب بالطبقة الراقية ، طبقة الفارغين ، الذين يثرون على حساب المجتمع ويتضخم ثراؤهم على حساب المحكومين .

وقد نجمت هذه الناجمة فى المجتمعات الإسلامية فى عصر شاعرنا . ولكنها كانت فى الحجاز أكثر وضوحا ، وأبعد شهرة ، ذلك لأن الحجاز كان القلعة التى يكمن فيها الخطر على الأمويين الذين تمت لهم الغلبة . إذ أن الحجاز يتألف من أبناء المهاجرين والأنصار ، ومن البيوتات القرشية العريقة فى الشرف والسؤدد فى الجاهلية

(١) وما زال أمر المسلمين كذلك منذ اغتيال على إلى أن جاء البعث الجديد فى حياة الأمة الإسلامية على يد أحرار مصر الذين حطموا ذلك النظام البغيض — نظام الملكية — الذى يجعل من الشعوب أثاثاً يورث برثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد . فخلصوا حياة العرب فى أضخم حصن لهم من نير ثقيل كانوا يرزحون تحته طيلة هذه الأجيال . وهذا حدث كبير فى حياة العرق العربى يجب أن يخلد ويعطى له ما هو به جدير من التقدير وللذين قاموا به مأثرة خالدة لا يمكن أن يتجاهلها أو ينكرها منصف يزن الأمور بميزانها الصحيح .

والإسلام . ونظرة هذا المجتمع إلى الأسرة الأموية تختلف عن نظرة بقية المجتمعات . فهى نظرة فيها الكثير من الازدراء والتهوين . لأن بعض أسر هذا المجتمع تفضل الأسرة الأموية فى كثير من الأمور . ولهذا الفضل ، يتشيع لهم كثير من البلاد والأمصار التى دانت لحكم بنى أمية .

فلا بدع إذا وجدنا الأمويين ينتهجون للحجاز منهجا سياسيا خاصا يتغاير مع سياستهم فى حكم غيره من الأمصار ، وهذا المنهج يتلخص فى مادتين أساسيتين :

الأولى : البطش الذريع .

الثانية : الإغداق الوفير .

ونسوق حادثتين كنموذج لهذا المنهج السياسى الذى كان يساس به الحجاز . الحادثة الأولى : لما ثار أهل المدينة المنورة على يزيد بن معاوية — بعد مأساة الحسين بن على رضى الله عنهما بعث يزيد حملة كبيرة أخمدت الثورة وأباح قائد الحملة (مسرف بن عقبة) المدينة لجنده ثلاثة أيام يقتلون وينهبون ويفتكون . ثم أبى على من بقى من أهل المدينة إلا أن يبايعوه على أن يكونوا خولا وعبيدا ليزيد أو يقتلوا . فبايع من بايع ، وقتل من قتل وهرب من هرب . وهذا منتهى ما عرف من البطش والقسوة فى تاريخ العرب والمسلمين فى ذلك العهد .

الحادثة الثانية : قابل عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يزيداً . وكان عبد الله هذا عميد البيت الهاشمى فى المدينة . وكان أجود أجواد العرب وله من المكانة فى نفوس الناس ما يجعل يزيد يحسب له ألف حساب ، فقال له : كم عطاؤك يا أبا هاشم ؟ فقال عبد الله : ألف ألف . فقال له يزيد : قد ضاعفناها لك . فقال عبد الله : فداك أبى ، وما قلتها لأحد قبلك . فقال يزيد : قد ضاعفنا لك العطاء ثانية لهذه . فعاد عبد الله من مقابلة يزيد بأربعة ملايين . وهذا — كما ترون أيها السادة — منتهى الإغداق .

وإن لهذه السياسة تأثيراً عميقاً فى تكييف الأخلاق والأفكار ، وتوجيه المواهب والملكات ، وقد رأينا تأثير هذه السياسة فى أخلاق الحجازيين وتفكيرهم ، ومواهبهم وملكاتهم .

رأينا الحجاز ينفض يديه من السياسة . ولم يعد يعنى بها كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين . ومن نازعته نفسه للسياسة ، فليس أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يرحل عن الحجاز ، كما فعل الحسين بن على عليهما السلام ، وإما أن يترصد فى حذر وكتمان حتى تواتيه الفرصة — كما فعل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

وقد يعجب البعض لموجة الغناء والمرح التى غرق فيها الحجاز فى ذلك العصر . ولكن نظرة عابرة على الأحداث التى توالت على الحجاز ، وموجات الأحزان المتلاحقة التى أغرقت فى خضمها الحجازيين ، تزيل كل عجب واستغراب . فهم إن أغرقوا أنفسهم فى الحياة اللاهية ، فإنما هم يريدون أن يسروا عن أنفسهم الحزينة ، وأن يزيلوا من سمائهم السحائب القاتمة التى أمطرتهم بالفجائع والآلام . ففى فترة لا تزيد عن ربع قرن ، كانوا لا ينتهون من مأساة حتى يصابوا بفاجعة . فقد اغتيل أبو الحرية والأحرار عمر بن الخطاب ، وما كاد أثر الفجيعة فى عمر يزول حتى صرع الخليفة الصالح عثمان بن عفان فى ثورة جامحة . وتلا ذلك وقعة الجمل وحصدت هذه الوقعة صفوة كبيرة من شباب الحجاز وشيوخه . وعقب هذه الوقعة نشبت وقعة صفين ، فقضت أو كادت تقضى على البقية الباقية من أعلام الحجاز النابهين فيه من أهل السابقة والفضل ، ثم اغتيل رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ولم يمض طويل وقت حتى مات ابنه الحسن فى المدينة فى ظروف غامضة . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فى حمص وأحاطت موته نفس الظروف التى أحاطت موت الحسن . ولم يكد الحجاز يكفكف دموعه على البررة من أبنائه حتى فوجىء بالمأساة التى اهتز لها العالم الإسلامى بأسره أسى وحزناً واستنكاراً ، تلك هى مأساة الحسين بن على فى كربلاء . وقد كان وقع هذه المأساة فى الحجاز أشد وأوجع ،

ثم حدثت مذبحة المدينة على يد مسرف بن عقبة . ثم قتل مصعب بن الزبير فى العراق . وعقبه مصرع أخيه عبد الله وانهيار دولته التى أقامها لمناوءة الأمويين . فهذه سلسلة من الكوارث أدمت قلوب الحجازيين وشملتهم بموجة من الحزن المميت . فلا بدع إذا وجدناهم بعد ذلك يغرقون أنفسهم فى موجة مضادة كلها لهو ومرح ، وغناء وشعر . وزادهم إمعاناً فى هذه الحياة ، مساعدة الأمويين لهم على ذلك بالبذل والعطاء ليصرفوهم عن التطلع إلى حقهم المغصوب . فنشأ بينهم الغزلون من الرجال والغزلات من النساء . وراجت سوق الظرف والظرفاء ، فى جانب . وفى جانب آخر نبغ فريق من الزهاد والنساك والفقهاء الذين انصرفوا للعبادة . وجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والعناية بأحكام الفقه الإسلامى . وأخذ الحجاز يعيش العيشة التى أرادتها له السياسة الأموية وأحداثها . ونحن لا يهمنا فى حديثنا هذا إلا مجتمع الطبقة الفارغة فى الحجاز لأن شاعرنا كان منها .

لقد كانت هذه الطبقة مضافاً إليها الطبقة الحاكمة ، تعيش عيشة مترفة ناعمة ممتعة . وأول حاكم مسلم اتجه فى حياته إلى هذا اللون من المعيشة وشجع عليه معاوية بن أبى سفيان ، فلقد رووا عنه أنه قدم إلى الحجاز حاجا فدخل المدينة فى موكب فخم ضخم — وكان أهل الحجاز لا عهد لهم برؤية الخلفاء إلا متقشفين مخشوشنين . فلما رأوا معاوية على هذا الوضع وفى هذا الموكب بهتوا . فقد كان من جملة ما فى موكبه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل الأرجوان يمتطيهن جواريه وهن فى أكمل زينة عليهن الجلابيب والمعصفرات . ففتن الناس بذلك المنظر . وأنكره المتحرجون . ولكن المترفين والموسرين ، أخذوا يقلدونه .

والناس — كما يقولون — على دين ملوكهم . فأقبلوا على تشييد القصور فى حواضر الحجاز ، وفى مشارف الأودية الجميلة ، كوادى العقيق فى المدينة ، ووادى قرن فى الطائف . وفى أباطح مكة وشعابها . وأحاطوها بأغراس النخيل وأعراش الكروم . وأشجار الورد والفاغية ومختلف الزهور والرياحين . ونشطوا فى حفر الآبار

والعيون ، وابتنوا الأحواض والبرك فى العرصات وملؤوها بالماء النقى الصافى لتلطيف الحر والسموم . وأثثوا الدور والقصور بالأثاث الفاخر والرياش الثمين . وزينوها بمختلف التحف والدمى المجلوبة من بلاد فارس والروم ومصر والشام والهند . واستوردوا عطور القرنفل والورد والكافور والمسك والعنبر والنّد من كل مكان . وتغالوا فى الملبوس . وتأنقوا فى الهندام وحشدوا قصورهم بالجوارى الحسان من هنديات وروميات وفارسيات وحبشيات واعتنوا بتأديبهن وتثقيفهن ، فعلموهن القراءة والكتابة . والعزف على الآلات الموسيقية ، وكان لديهم منها : الرق والعود والناى والطنبور . وشغفوا بالغناء وكرموا المغنين والمغنيات وجعلوا لهم مكاناً مرموقاً بينهم .

وكان الرجال والنساء من هذه الطبقة يركبون الخيل المسومة ، والبغال المطهمة ، والنجائب الفارعة المزينة ، ويخرجون إلى المتنزهات فى مواكب خلابة يمشى عن أيمانهم وشمائلهم ومن أمامهم وخلفهم الخدم والعبيد متمنطقين بالخناجر المموهة بالذهب متوشحين بالسيوف المرصعة بالجوهر . واستحدثت نساء هذه الطبقة (موديلات جديدة) فى القمصان والجلابيب والخُمُر ، وكن يسدلن على وجوههن رقائق الحرير الشفاف لتمنع عنهن الغبار ، ولتشف عن وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا . كما يقول عمر ، واستحدثت سكينة ابنة الحسين تصفيفة جميلة لشعرها ، فقلدها النساء . كما قلدها بعض الشبان المائعين . وسميت هذه التصفيفة بالجمة السكينية . واخترعن العصائب الموشاة بالقصب المحلاة باليواقيت واللؤلؤ . ولبسن الأقراط والخواتم والعقود ذات الأثمان الخيالية ، وتغالت هذه الطبقة فى المهور . فقد أمهر مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة بألف ألف . وقد أنكر الشعب هذا السرف البالغ من طبقة الحاكمين ، لأن هذا السرف لا يمكن أن يكون إلا على حساب الشعب المسكين . وقد كان مصعب بن الزبير هذا أميراً على بعض البلاد من قبل أخيه عبد الله فإذا بشاعر شعبى يقول أبياتاً منها :

أبلغ أمير المؤمنين مقالة   من ناصح لك لا يريد خداعا
مهر الفتاة بألف ألف كامل   وتبيت سادات الجنود جياعا

وقد عزل عبد الله أخاه مصعباً لما بلغه قول الشاعر . ولكن ماذا يفيد عزل أمير عن إمارته ؟ بعد أن استمرأت هذه الطبقة حياتها على هذا الوضع ومنها الحكام والأمراء وأولياء العهود من بنى أمية ودولتهم مازالت قابضة على زمام الحكم . وأبناؤها يحيون على هذه الوتيرة . وقد غلب باطلهم كل حق وكل قائم بحق . وسارت عجلة الترف والسرف فى طريقها تطحن كل شىء يقف أمامها حتى بلغت القمة . ثم طحنتهم العجلة حتى انهارت دولتهم تحت سيرها العنيف بين عشية وضحاها .

ولكن كانت هذه الحياة المترفة محوطة سياج قوى لا يصل إليه إلا كل من كان ذا حسب ونسب وعصبية قوية وثراء ضخم ، فكان الشعراء يتحامونها . والشاعر الذى لايتحاماها لا يستطيع تصويرها فى شعره لأنه لا يحسها ولا يستمتع بما فيها من فنون وفتون . وكذلك لا يجرأ شاعر شعبى أن يتغزل بنساء هذه الطبقة المعتدة بأحسابها وأنسابها المعتزة بمالها وثرائها .

ومن ذا الذى يجرأ على التغزل بعائشة بنت طلحة . وسكينة بنت الحسين . وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف . والثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر . وفاطمة بنت عبد الملك ابن مروان وغيرهن من خرائد البيوتات ؟

لا يستطيع نصيب العبد ، ولا يستطيع كثير وجميل البدويان أن يرفعا أعينهما إليهن ، وكذلك لا يستطيع جرير ، ولا الفرزدق ، ولا الأحوص . أن يتغزلوا بالقرشيات . لأنهم ليسوا من قريش ، ومن ذلك نعرف أن هذه الطبقة المميزة المشغوفة بالغناء كان ينقصها شاعر منها . . . لقد كانت فى حاجة إلى شاعر يكون حسبه من حسبها ، ونسبه من نسبها ، وثراؤه يضاهى ثراءها ، وذوقه لا يشذ عن ذوقها . وهى لا تسيغ بحال من الأحوال أن يتغنى مطربوها ومطرباتها بأمجاد غيرهم ، ومناقب سواهم . ولا يسمحون لشاعر أجنبى عنهم أن يتهجم على حرمهم ويتغزل بنسائهم .

لـكن عمر بن أبى ربيعة منهم فى الصميم ، وله من الثروة واليسار ما يجعله يحيا حياتهم ويحس بإحساسهم ، ويلهو لهوهم ويجاريهم فى كل مضمار .

وقد آن لى أن أتحدث عنه ولأبدأ بالحديث عن عشيرة عمر وأسرته :

عشيرة عمر وأسرته :

فعشيرة عمر بنو مخزوم ، وبنو مخزوم ثالث بطن من بطون قريش البطاح التى تأتى فى المقدمة ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم ثم بقية بطون قريش ، وأسرته بنو المغيرة ابن مخزوم . وهم أبرز أبناء هذه البطن من قريش فى الجاهلية والإسلام ، فهو عمر ابن عبد الله بن حذيفة بن المغيرة بن مخزوم ، وكان أبوه عبدالله علما من أعلام قريش فى الجاهلية ، وكانت قريش تسميه العدل لأن قريشاً كانت تـكسوا الـكعبة سنة ، ويكسوها عبد الله بمفرده سنة ، فسمته العدل لأنه عدلها ، وهـذا يدل على الثراء العريض والـكرم البالغ كما يدل على عاطفة دينية عميقة .

وكان لعبد الله عدد كبير من العبيد ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أراد غزو ثقيف قيل له استعن بعبيد عبد الله فأبى . . هذا شرفه فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فقد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجَنَد . ومخاليفها ، وهى ولاية كبيرة من ولايات اليمن الثلاث : صنعاء ومخاليفها ، وحضرموت ومخاليفها، والجند ومخاليفها . وأرجح أن الجند هى المنطقة المسماة بعسير الآن ، وربما شملت ما يقال له قبل اليوم المخلاف السليمانى ، وقد لبث عبد الله فى ولاية هذه المنطقة مدة الرسول وخلافة أبى بكر وخلافة عمر حتى أوائل خلافة عثمان ابن عفان .

وكان أبو عبد الله جد عمر اسمه حذيفة وكنيته أبو ربيعة وإليه نسب عمر . وكان أبو ربيعة هذا شجاعا مقداما ، وتسميه قريش ذا الرمحين ، لأنه قاتل فى حرب الفجار برمحين ، وذلك كما يدل على الشجاعة يدل على البراعة فى فن القتال . وكان

المغيرة أبو حذيفة عظيما فى قريش بلغ من الشرف والسؤدد ما جعلهم يسمونه رب قريش . وقد قال الشاعر فى هذا النسب الضخم :

ألا الله قوم ولدت أخت بنى سهم
هشام وأبو عبد منا ف مدره الخصم ..
وذو الرمحين أشباك على القوة والحزم
فهذان يذودان وذا عن كثب يرمى
أسود تزدهى الأقرا ن منا عون للهضم
وهم يوم عكاظ منعوا النـاس من الهزم
وهم من ولدوا أشبوا بسر الحسب الضخم
فإن أحلف و بيت الله لم أحلف على إثم
لمـا من إخوة تبنى قصور الشام والردم
بأزكى من بنى ر يـ طة أو أوزن فى الحلم ..

و ريطة هذه أم بنى المغيرة وهى من بنى سهم و بنوسهم بطن من قريش . هذا هو النسب الضخم لعمر بن أبى ر بيعة وتلك هى مآثر آبائه فى الجاهلية . أما فى الإسلام فيـكفى بنى مخزوم أن يكون منهم بطل الإسلام خالد بن الوليد . وأن يكون أب شاعرنا من الذين أئتمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمارة جزء كبير من جز يرة العرب . وبالجملة فإن شاعرنا من أسرة وعشيرة فى الذروة من قريش إذا جاءت قر يش فى جاهليتها بالأحساب وجاءت فى الإسلام بالأعمال . . وكان لعمر أخ لأب اسمه الحارث بن عبد الله وكان رجلا رز ينا تقياً ولاه عبد الله بن الز بير إمارة البصرة وكان لعمر ابن يقال له جوان تولى إمارة تباله باليمن فى دولة ابن الز بير أيضاً . ومن العجيب أن يكون شاعرنا ابن أمير وأخ أمير وأب أمير وهو لم يؤمر . ولا أظن إلا أن الإمارة عرضت عليه . ولـكن نفسه الشاعرة ، أنفت من ذلك لما فى الامارة من قيود وهو شاعر لا يحب غير التحرر والانطلاق .

مولد عمر :

يقال إن عمر ولد فى الليلة التى قتل فيها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فسمى باسمه وكنى بكنيته ولا أظنه إلا مولودا فى السنة التى قتل فيها عمر . لأن أباه كان أميراً على الجند وأمه كانت من البلد التى فيها إمارته . إذ لا يعقل أن يغتال عمر وفى الليلة نفسها يولد عمر فيسمى بإسمه إلا إذا كان أبو عمر موجوداً فى المدينة ليلة مقتل عمر . ولا أظن أن عبد الله يشق على زوجته وهى فى أشهرها الأخيرة من الحمل ويأتى بها إلى المدينة إذا كانت أعمال إمارته فرضت عليه السفر إلى المدينة لمقابلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقد عرف عن رجال قريش حنوهم الشديد على النساء .

لذلك أرجح أنه ولد فى موطن أمه بالجند وولد فى السنة التى اغتيل فيها عمر لا فى الليلة نفسها وقد سماه أبوه عمر باسم الخليفة . لما لهذا الخليفة فى قلوب الناس من حب واحترام . ولايبعد أنه بقى باليمن فى كنف أمه وأبيه حتى مات أبوه فى أوائل خلافة عثمان . فنقل الطفل إلى المدينة بعد وفاة أبيه لينشأ فى وطنه و بين أهله وعشيرته . وكان القيم عليه أخاه لأبيه الحارث . فثقفه بكل ما يتثقف به أبناء الأشراف فى ذلك الوقت فقرأ القرآن وحفظ الحديث ورواه ولكن علماء الحديث ضعفوا روايته . لأنه لا يتفق مع ما اشترطوه فى رواة الحديث من التحرز والاحتياط ، وتفقة فى الدين وتعلم الكتابة ورمى النبال والضرب بالسيف ، والمصارعة وركوب الخيل .

وقرأ شعر الجاهلية ، وألم بأشعار معاصريه من الشعراء ، ولقد تفتحت شاعريته وهو ما يزال فتى يافعا ، وكان أخوه الحارث يكره الشعر ، و بخاصة ما يختص بالغزل . فنهى أخاه عمر عن قوله ، ولكنه لم ينته ، فلما رأى اصراره على قول الشعر ذهب به إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنهما وقال له : إن أخى قال شعراً فاسمعه منه ، فإن كان حسناً تركتة يقوله ، و إن كان غير ذلك صرفته عنه ، فلما سمعه عبد الله بن عباس قال للحارث : إن بقى هذا ليخرجن المخبآت من خدورهن . وقد حقق المستقبل ما تنبأ به ابن عباس وأخرج عمر بشعره المخبآت من خدورهن وان لتشجيع ابن عباس

فضلا كبيراً فى تنمية شاعريته وإشعال نبوغه ، ولو تركت هذه الشاعرية لأخيه الحارث لوأدها وهى فى مهدها .

وكان ابن عباس يسمع شعر عمر فى حلقة درسه ، تحت ظل الكعبة فى المسجد الحرام ، وإذا تغيب سأل عنه بقوله : ماذا فعل المغيرى بعدنا ؟ وكان ابن عباس يحفظ شعر عمر وينافح عنه ، وقد أنكر ذلك عليه نافع ابن الأزرق بقوله : يا ابن عباس إننا نضرب إليك آباط الإبل من أقاصى الأرض لنسألك عن الحلال والحرام ، ويأتيك مترف من مترفى قريش فتستمع إلى شعره وتعرض عنا ، وهو ينشدك قوله :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت   فيضحى وأما بالعشى فيخسر

فقال له ابن عباس : لم يقل فيخسر ، وإنما قال فيخصر . قال نافع : أو حفظت البيت ؟ قال ابن عباس : بل حفظت القصيدة ، وإذا شئت أن أقرأها لك قرأتها ، قال نافع : فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة كما سمعها من عمر .

هذا التشجيع الكبير الذى لقيه عمر من هذا الصحابى الجليل حبر الأمة ، وابن عم الرسول يجب أن نذكره بالتمجيد والإعجاب ، لأنه يرينا صورة من النفوس السمحة التى كان يتحلى بها فقهاء ذلك العصر وعلماؤه ، ولعل الذين يضيقون بالشعر والشعراء من العلماء المتزمتين اليوم يتأسون بمن هم أفضل منهم وأحرص على أخلاق المسلمين . ومن العجيب أن نرى بين علماء المسلمين اليوم من يحرم الشعر باسم الإسلام ، أو لعل الذين أخذوا الإسلام عن الهوامش والحواشى ، أعلم بالإسلام وروحه ممن أخذوا الإسلام عن رسول الإسلام ؟ من يدرى ؟

صحب عمر :

بلغ عمر سن الشباب والفتوة بالمدينة المنورة ، فوجد المدينة تزخر من حوله بما قدمنا من حياة المجتمع الراقى ، وما هو فيه من ترف ونعمة ، وما عليه أبناء الأشراف من أبهة وفخفخة . وكان أبرز البارزين فى هذا المجتمع الناعم المترف أجود أجواد

العرب وعميد البيت الهاشمى فى المدينة إذ ذاك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان رجلا مهيبا مرموقا ، وكان بيته كعبة الوافدين والأضياف من كافة أنحاء البلاد الإسلامية ، وكانت تقام فى منزله أكبر حفلات الطرب يجتمع فيها كبار المغنين والمغنيات . . ويجتمع فيها الناس من جميع الطبقات للسماع .

وبجانب هذه الدار دار أخرى هى دار حفيد الخليفة الأول عبد الله بن عبدالرحمن ابن أبى بكر الصديق الشهير بابن عتيق ، وكان رجل ظرف ودعابة ، وكان عمر فتى مرموقا لما لأسرته من مكان لا ينكر فى مثل هذا المجتمع ، ولا يعسر على مثله أن يصاحب هذين الرجلين الكبيرين ، فصحبهما وتوطدت بينهم أسباب الصداقة حتى صاروا لا يكادون يفترقون عن بعض . وكان عمر يجمع إلى جمال شاعريته جمال هندامه وجمال خلقه وخلقه ، وتألق هذا الثالوث الجميل فى المجتمع الراقى تألقاً باهراً ، فابن جعفر عرف بسخائه وكرمه ، وابن أبى عتيق عرف بظرفه ودعابته ، وعرف عمر بشعره ودماثة أخلاقه . وكان هذا الثالوث يقوم بإقامة الحفلات الغنائية ، ويعقد مجالس الفكاهة والمرح ويجعلها مجالس عامة لا يرد عنها أحد ، فاجتمع عليهم الشباب حتى صار حضورهم الحفلات الغنائية شغلهم الشاغل . وقد أنكر بعض الشيوخ الأمبين من قريش على ابنه شغفه بمجالس الغناء ، فقال له : أتمنعنى عن مجلس يجلس فيه عبد الله بن جعفر ؟ فذهب هذا الرجل إلى عبد الله وقال له : يا أبا هاشم لقد اتخذك فتياننا حجة فى السماع فإذا نهيناهم عنه قالوا اتنهوننا عما يسمعه عبد الله ابن جعفر ؟ فقال له عبد الله : ولقد اتخذك فتياننا حجة إذا حملناهم على التعليم ، فيقولون لنا : أتأمروننا بشىء ، لم بتعلمه فلان.

فاستحيا ذلك الشيخ من عبد الله وذهب . وهكذا أيها السادة إذا ملك الأميون أمراً يحرمون ما لم يحرمه الله ويحللون ما حرمه الله . ويتخذون من أميتهم دينا يفرضونه على الناس .

ما علينا ، فقد تأثر شاعرنا بأخلاق صاحبه عبد الله بن جعفر وبأخلاق ابن

أبى عتيق . ونسوق حكايتين نستشف منهما ما كان يكمن فى نفسية كل منهما من كرم أصيل وسماحة طبيعية وظرف غير متكلف : الأولى عن عبد الله بن جعفر ، والثانية عن ابن أبى عتيق .

* * *

جاء شاعر إلى عبد الله بن جعفر وأنشده هذه الأبيات :

رأيت أبا جعفر فى المنـــام   كســـانى من الخز دراعه
شكوت إلى صاحبى أمرها   فقال ستؤتى بهـــا الساعه
سيكسوكها الماجد الجعفرى   ومن كفه ــ الدهر ــ نفاعه
ومن قال : للجود لا تعدنى   فقال : لك السمع والطاعه

فقال عبد الله لغلامه : ادفع له دراعتى الخز ، وقال للشاعر : كيف لم ترجُبتى المنسوجة بالذهب هذه الجبة التى اشتريتها بثلاثمائة دينار ؟ فقال له الشاعر : دعنى أغفى اغفاءة أخرى فلعلنى أراها فى المنام . فضحك عبد الله وقال : يا غلام ادفع له جبتى الوشى .

أما ابن أبى عتيق . فقد رأى خدشا فى حلق ابن عائشة المطرب المشهور فى عصره فقال له : من فعل بك هذا ؟ قال : فلان . فمضى ابن أبى عتيق ونزع ثيابه وجلس للرجل على بابه حتى خرج فأخذ بتلابيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له : يا حفيد خليفة رسول الله مالك تضربنى ؟ ماذا صنعت ؟ وهو لا يجيبه ثم خلاه وقال لمن حضر : إن هذا يريد أن يكسر مزماراً من مزامير داود . أنه خدش ابن عائشة فى حلقه . هذا الظرف وذلك السخاء فى هذين الرجلين . وذلك الوقار والصلاح اللذين يتصف بهما أخوه الحارث ابن أبى ربيعة أثر فى أخلاق شاعرنا تأثيراً كبيرا فترفع عن الدنايا كما ترفعوا . ولم يتسفل إلى ما يتسفل إليه غيره من الشعراء . فليس فى عمر شراسة العرجى . ولا تسفلات الأحوص . ولا أقذاع جرير . ولا اندفاعات الفرزدق .

ولم تعن شاعريته بمديح الملوك والأمراء وأولياء العهود من بنى أمية على شدة لهفتهم إلى استماع مديحهم من عمر . وقد قال له الوليد بن عبد الملك ما يمنعك من مدحنا ؟ فقال له عمر : إنى لا أمدح الرجال . وحقاً أن عمر لم يمدح إلا النساء . . ولكن مع هذا فقد رويت له أبيات يمدح فيها صديقه عبد الله بن جعفر . حينما ابتعد عمر عن مجالسه فى بعض رحلاته التجارية . وقد رأى حمامة تنوح بقربه فأثارت أشجانه وقال قصيدة فقد أكثرها منها:

على أنها ناحت ولم تذر عبرة ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخى مهامه فيح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى فتضحى عصا التسيار وهى طريح

ولا أظن إلا أن لعمر مدائح فى أصحابه وأصدقائه ومرثيات لمن مات منهم قبله وبخاصة فى صديقه هذا عبد الله بن جعفر . ويغلب على ظنى أنه طواها بيده . لئلا تكون حجة عليه عند بنى أمية الذين قال لهم : إنى لا أمدح الرجال وهو يعرف من بنى أمية ما نعرفه نحن عنهم . كانوا لا يحنقهم شىء مثل ما تحنقهم المدائح فى الهاشميين وعبد الله بن جعفر عميد الهاشميين . فخشى عمر أن يفسد عليه بنو أمية حياته المترفة الناعمة إذا هم رأوا شيئا من مدائحه فى غيرهم فطواها عن الأعين والأسماع فاندثرت فيما اندثر من شعره .

ومن أصحاب عمر : صاحب ثالث لزمه فى مكة . ذلك هو عميد المطربين فى مكة عبيد بن سريج ، وهو مولى بعض الأسر القرشية ، وكان وهو فى المدينة فتى يافعاً مثل عمر يحضر حفلات الغناء التى كانت تقام فى منزل عبد الله بن جعفر وكان عبد الله بن جعفر يعطف عليه ويواسيه . ولعله كان يستشف من نفسه روحاً فنية لم تتفتح بعد فتعرف عليه عمر واصطحبا . فلما انتقل عمر إلى مكة وانتقل إليها ابن سريج كان مطرب عمر المفضل. وقد بلغ ابن سريج من جودة الغناء وحسن الأداء وصفاء الصوت مبلغاً عظيما حتى افتتن به الناس افتتانا عجيبا . وكانوا يفضلون الانصراف إليه لسماعه على الانصراف إلى أعمالهم . حتى أن عطاء بن رباح عالم مكة

وأعظم زهادها . ذهب إليه وقال له : يافتان ألا تـكف عما أنت فيه ؟ فقال له ابن سريج : سألتك بحق من تبعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبحق رسول الله عليك إلا ما سمعت منى . فإن سمعت منكرا أمرتنى بالإمساك عما أنا عليه وأنا أقسم لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالإمساك لأفعلن ذلك . فطمع فيه عطاء وقال له : قل . فاندفع ابن سريج يغنى .

إن الذين غدوا بلبك غادروا   وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى   ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعه عطاء اضطرب اضطرابا شديداً . وحلف أن لا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر وصار إلى مكانه بالمسجد الحرام فكان كل من يأتيه سائلا عن الحلال والحرام لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : (ماذا لقيت من الهوى ولقينا) حتى صلى المغرب . ولم يعاود لوم ابن سريج أو معارضته هذا ما كان عليه أسلافنا من تقدير للفن وتأثر به . وقد وصلنا إلى عصر قست فيه القلوب حتى صارت كالحجارة ورأينا رجالا يحرمون الغناء تحت ستار الدين . وحاشا سماحة الإسلام . ودين الفطرة . أن يحارب مافطرت عليه النفوس . أو يمنع ما فيه تهذيب لها .

انتقال عمر إلى مكة :

وبينما كانت المدينة المنورة تنعم بالترف والنعيم . وتلهو لهوها الممتع الشائق مات معاوية ونودى بابنه يزيد خليفة على المسلمين وهذه بدعة منكرة لم يعرفها المسلمون فى عهد خلفائهم الراشدين وأهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار . ومن ذوى العصبيات القوية . ومن أهل العرفان والعلم بالفقه الإسلامى ، وهم يعرفون أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . فليس بدعا عليهم إن لم يقروا هذا الوضع وأبوا أن يورثوا كما تورث الدور والقصور والمواشى والأنعام . وكيف لا يأبون ذلك وهم الذين حطموا القيصرية والـكسروية فى فارس والروم وخلصوا الشعوب من نيرها الثقيل المرهق . فثار الحسين بن علىّ على هذا الوضع وكانت شيعته بالعراق فذهب إليها

وفى العراق حدثت تلك المأساة الرهيبة . وثارت المدينة المنورة بزعامة عبد الله بن حنظلة الغسيل وجاء مسرف بن عقبة بحماته وأنزل بالمدينة تلك الكارثة المشهورة . مما جعل الناس يتسللون إلى مكة حيث عبد الله بن الزبير يربض فيها ويعد لوثبته على الأمويين عدتها . وكان الحارث أخ شاعرنا من ثوار المدينة . ولكنه استطاع أن يفلت هو وعائلته من قبضة مسرف . ويتسلل إلى مكة . وبطبيعة الحال كان عمر معه . واستطاع ابن سريج أيضاً أن يذهب إلى مكة . مع عمر . وهذه الكارثة هى التى ألهبت فى ابن سريج فنه ورفعت من قدره إذ كان يصعد إلى جبل أبى قبيس وينوح على قتلى الثورة بمثل هذا البيت :

ياعين جودى بالدموع السفاح وابكى على قتلى قريش البطاح

وقول سكينة بنت الحسين :

يا أرض ويحك أكرمى أمواتى فلقد ظفرت بسادتى وحُماتى

فلفت نظر الناس إليه بصوته وحسن ترجيعه . واستغل عمر بن ربيعة ذلك فكان ينظم المقطوعة من الشعر ويعطيها لابن سريج فيلحنها ثم يعد عمر مجلساً حافلا للغناء فيتغنى ابن سريج بأبيات عمر .

وفى مكة ظهر عمر ظهوره الساطع . فقد كان مترفا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانى الترف . يعنى بهيئته وهندامه فيلبس الفاخر من الثياب ويسدل لمته بعد أن يخضبها بالعنبر والمسك ويعنى بركائبه فيجملها برحائل الديباج الموشاة بالقصب . ويعنى بمجلسه فيصف المراتب الوثيرة . ويفرشه بالبسط الفارسية . وكان لا يثير فى نفسه الشعر إلا منظر النساء الجميلات الأنيقات المترفات . فهن مصدر وحيه . ومبعث إلهامه . فكان يترصدهن فى كل مكان ويتنسم أخبارهن . ويحتفل لمقابلتهن احتفالا عظيما . وكان يحيط نفسه بحاشية من صحابه وخدمه يغدق عليها إغداقا وفيراً من ماله . وكان ماله لا يضيق بذلك فقد ورث ثروة طائلة من أبيه . ولم يلهه الشعر والغزل ومجالس اللهو عن تنمية الثروة الموروثة . فكانت له رحلات تجارية أكثرها إلى اليمن . وربما ذهب إلى العراق فى رحلة مزدوجة للتجارة والحب .

وقد قصت كتب الأدب عن تفننه فى إبراز الصورة التى يحبها لمظهره وموكبه الشيء الكثير من ذلك قول صاحب الأغانى « حج عمر بن أبى ربيعة على نجيب مخضوب (بالحناء) مشهر الرحل بقراب مذهب . ومعه عبيد بن سريج على بغلة شقراء . وغلام عمر جناد يقود فرساً له أدهم أغر محجلا فى عنقه طوق من ذهب . وكان اسم الفرس كوكب » .

وقال أيضاً : خرج عمر ومعه ابن سريج على نجيبين راحلتاهما ملبستان بالديباج وقد خضب النجيبان (بالحناء) ولبس عمر حلة وابن سريج حلة . هاتان الحكايتان تعطينا فكرة أو صورة لما كانت عليه مواكب عمر التى كان يخرج فيها إلى الحج أو إلى المتنزهات فيبهر الناس بمظهر فذ يدل على النعمة واليسار . والظرف ، والترف .

وكان عمر يختار لمجاسه عند منصرف الناس من الحج كثيباً يشرف على الحجاج فى مفترق الطرق بأعلى مكة . فتبسط له البسط وتحيط به الحاشية ويقف على رأسه غلامه جناد . ويجلس عن يمينه ابن سريج ضارباً على رقه أو على عوده ويرفع صوته بالغناء فى مقطوعة من شعر عمر . فيجتمع الحجيج تحت الكثيب ويستمعون إلى الشعر والغناء ولا ينصرفون إلى بلادهم إلا وهم يرددون شعر عمر وألحان ابن سريج ويتحدثون عن ذلك المجلس الرائع الفتان .

أما قبل الحج فكان يخرج بموكبه الجميل الذى تقدم وصفه إلى ذات عرق فتضرب له المضارب الفخمة التى تلفت إليها الأنظار ويبقى هناك حتى يمر الركب العراقى فيرصد من فيه من حسناوات .

وينتقل إلى مر ليستقبل الركب المدنى . ثم ينتقل إلى القديد أو الكديد ليستقبل أهل الشام . ثم ينتقل إلى يلملم حيث يستقبل ركب أهل اليمن . وهو فى كل ذلك لا يتعقب إلا النساء الجميلات المترفات فيتحدث إليهن . ويسمعهن شعره القديم ويتزود بنظرة تبعث فيه شعراً جديداً . ثم يضرب بينه وبينهن المواعيد للمحادثة والسمر . وقد شغف به النساء الغزلات ، ونقصد بالغزلات اللواتى يحببن سماع الغزل

كما شغف بهن ، فكن يتفقدنه فى المواقيت وإذا لم يرين مضاربه الأنيقة ، بحثن عنه كما يبحث عنهن . ويتحيلن فى مقابلته بشتى الحيل . ولا بدع فى ذلك « فالغوانى يغرهن الثناء » وعمر يمدحهن ويثنى عليهن فى شعره ، وشعره أحسن إعلان عن جمالهن ، فيجعل منهن حديثاً للركبان وأغنيات للمطربين . والمرأة لا تحب شيئاً حبها الإشادة بجمالها وأحسن العلم عندها علمها بمدى تأثيرها فى قلوب الرجال . وبخاصة فى قلوب الشعراء فهم عند الغانيات الناس ، ورحم الله شوقى حيث يقول : « أنتم الناس أيها الشعراء » .

وإذا رأينا النساء يتهافتن على عمر ويحرصن على محادثته . فلا نراهن يردن من ذلك إلا اشتهار الاسم وبعد الصيت . ونستدل على ذلك بحكاية حكاها الأصفهانى فى أغانيه واستدل بها الأستاذ العقاد فى كتابه (شاعر الغزل) . على ما أذهب إليه . وملخص الحكاية : أن عمر بن ربيعة رأى امرأة عراقية فأعجبه جمالها فمشى خلفها حتى عرف منزلها . ثم زارها وحادثها وناشدها وناشدته فلما أعجب بها خطبها فقالت : إن هذا لا يصلح هنا ولكن إن جئتنى إلى بلدى وخطبتنى إلى أهلى تزوجتك فارتحل معها إلى العراق ثم تنجزها وعدها ، فأعلمته : « أنها كانت متزوجة بابن عم لها وقد مات بعد أن خلف منها أولاداً وترك لها ثروة وأوصى بهم وبثروتهم إليها ما لم تتزوج . وهى تخاف إن تزوجته فراق أبنائها وذهاب النعمة عنها » فتركها وعاد إلى مكة . ويقول الأستاذ العقاد تعقيباً على هذه الحكاية : « فهذه الحسناء العراقية لم ترد حباً ولا زواجاً ولا متعة حديث . ولكنها أرادت أن يشتهر بين الناس أنها أزعجت شاعر الغزل فى الحجاز حتى ترك وطنه وتبعها وتمنى زواجها فلم تجبه . وهذا الذى صنعته الحسناء العراقية تصنعه الحسان الحجازيات اللائى يأبين السكوت عنهن إذا كان معنى السكوت أنهن أقل جمالا وفتنة ممن نظم فيهن الغزل وجرى بوصفهن الحديث فيتصدين ولا يتجاوزن الملهيات أو هذه المناوشة » ، هذا شأن الحسناوات

اللائى كن يتعرضن لعمر ليتغزل بهن . أما شأنه معهن فقد أجمع الرواة ولم يغب عنهن أن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف و يحوم ولا يرد .

لقد عرف عمر لنفسه مكانتها فلم يتبذل فى شعره . ولم نر فحشاً فى الكثرة الكاثرة مما نظم . والشىء القليل الذى فيه الفحش لاقى فيه من حسناواته نقداً لاذعاً . لأن حسناواته لا يردن له التبذل أو لا يردن الإساءة لسمعتهن و إذا أقررنه على التبذل والفحش لحقت بهن الإساءة . روى الأغانى ، والخلاصة مما روى : أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان حجت . فلما أتمت مناسكها دعته إليها فلما حضر عندها قالت له : أأنت عمر بن أبى ربيعة ؟ فقال : أنا عمر . قالت أنت الفاضح للحرائر حيث تقول :

قالت : وعيش أخى وحرمة والدى لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تحرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

أخرج عنى . وقد أخرج من مجلسها إخراجا وهذا شديد مؤلم على عمر لمكانته من قريش بصرف النظر عن مجده الشعرى الضخم ثم استدعته مرة ثانية ، فلما حضر عندها قالت يا فضاح الحرائر بقولك :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى على الرمل من جبانة لم توسد
فقالت : على اسم الله أمرك طاعة وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فلما دنا الإصباح قالت : فضحتنى فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

ثم قالت : أخرج عنى يا فضاح الحرائر . وأخرج . ولكنها فى هذه المرة لم تتركه يذهب بل ردته وقالت : لولا وشك الرحيل وخوف الفوت ومحبتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك لأقصينك فجلس يتحدث معها ولكن بعد أن أعطته درساً قاسياً ، يجعله طول حياته ، لا ينزل عن المستوى الشعرى الذى يريده له نساء هذه

الطبقة . ومما يدل على أن عمر لم تمتد غايته إلى أكثر من المحادثة والمؤانسة . وأنه لا يريد بحال من الأحوال أن يتأذى منه حسناواته . زواجه من كلثم بنت سعد المخزومية . ولزواجه بها قصة : فقد كان يهواها وكانت شديدة التمنع عليه . ومن شدتها عليه أن أرسل لها جارية من جواريه فضربتها وحلقتها . فأرسل لها أخرى ففعلت بها ما فعلت بالأولى فتحاماها جواريه ورسله . ولكنه لم يعدم حيلة فبعث إليها بمولاة له كانت لبقة فى تصرفها . فتوددت إلى خادمتها حتى أصبح ترددها لم يثر ريبة أو شك فى نفس كلثم . ومازالت تتلطف بكلثم حتى أنست إليها وصارت تسمع منها حديثها فلما أمنت غضبها قالت لها : لى عليك عهد الله أن أطلعك على شىء فإن كان منك إلى ما أحبه و إلا فلا يلحقنى منك مكروه ، فعاهدتها على ذلك ، فأعطتها قصيدة كان عمر نظمها لها . يقول فيها :

من عاشق صب يسر الهوى قد شفه الوجد إلى كلثم
رأتك عينى فدعانى الهوى إليك للحين ، ولم أعلم
قتلتنا يا حبذا أنتمو . . . فى غير ما جرم ولا مأثم
والله قد أنزل فى وحيه مبيناً فى آيه المحكم
من يقتل النفس كذا ظالما ولم يقدها ، نفسه يظلم
وأنت نارى فتلافى دمى ثم اجعليه نعمة تنعمى
وحكمى عدلا يكن بيننا أو أنت فيما بيننا فاحكمى

فلما قرأتها قالت : إنه خداع ملق وليس إلى ما شكاه من أصل . قالت : يا مولاتى فما عليك فى امتحانه ؟ قالت : أذنت له . وزينت نفسها ومجلسها وجلست له من وراء ستر . فلما دخل واطمأن به الجلوس . قالت له : أخبرنى عنك يا فاسق ألست القائل ؟ .

هلا استحيت فترحمى صبا صديان لم تدعى له قلبا
جشم الزيارة فى مودتكم وأراد أن لا ترهقى ذنبا

ورجا مصالحكم فردكموا . . سلما ، وكنت تريئه حربا
لا تجعلن أحداً عليك إذا أحببته وهويته ربا
وصل الحبيب إذا سعدت به واطو الزيارة دونه غِبّا
فلذاك أحسن من مواظبة ايست تزيدك عنده قربا
لا بل يملك عند عودته ويقول : هاهِ وطالما لبا

قال عمر : جعلت فداك ، إن القلب إذا هوى علق اللسان بما يهوى . فعدلت عن تقريعه ، وأنست لحديثه فمكث عندها شهراً ، فلما أراد الخروج استأذنها . فقالت : بعد أن فضحتنى . لا تخرج إلا بعد أن تتزوجنى . فتزوجها وأنجب منها ابنه نجوان .

هذه الحكاية تدلنا على أن عمر لم يكن ذئبا من ذئاب الإنسانية الذين يغدرون بالنساء ثم يدعونهن صرعى الغدر والتغرير ، وإنما هو رجل يعرف تبعات الرجولة فيحتملها فى قوة ورضاء .

لقد بلغت فى الحديث عن عمر مبلغا أظنه كافيا لإعطاء صورة واضحة عن عصر عمر ومجتمعه وأسرته ونشأته ونفسيته . وبقى أن أتحدث عن شعر عمر ، الذى هو مرآة نفسه .

شعر عمر :

لقد كان شعر عمر مذكرات يومية يسجل فيها حياته الخاصة التى كان يحياها ، والحياة التى كان عمر يحياها بعيدة كل البعد عن الأحداث السياسية الكبرى التى كانت تدور حوله فلم يتأثر بها ، ولم تتأثر به . وإنما هو رجل فنان مترف موكل بجمال الوجه يتبعه ، فلا يهمه من هذه الحياة إلا جمال النساء ، وما يأتى اطارا لذلك من جمال الموكب ، وجمال الملبس ، وجمال المجلس ، وجمال الهندام ، وجمال الشعر وجمال الغناء ، فإن تعرضت الأحداث لشىء من ذلك انفعلت نفس عمر وإلا فلا

انفعال ولا شعر . فمن ذلك ، لما بلغ عمر أن مصعب بن الزبير قتل عمرة بنت النعمان الأنصارية . انفعلت نفس عمر واهتزت لهذا العمل الذى يعده عمر من أفظع الكبائر:

إن من أعظم الكبائر عندى   قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب   إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

فصرع هذه المرأة حرك نفس عمر للشعر ، أما مصرع آلاف الرجال الذين كانوا يتساقطون كورق الأشجار بسيف البغى ، فلا يحرك عمر ولا يهز شاعريته . لأن ذلك غير داخل فيما يعنى به عمر من أمور الحياة . وأنا أخشى أن ألوم عمر على ذلك لأنه تمنى لمن يلومه أن يلاقى عشر ما كان يلاقيه من عذاب فى حبه للنساء . ولا أريد أن يشمت بى عمر فى قبره إذا حقق الله أمنيته فهو يقول :

يا ليت من لامنا فى الحب مر به   مما نلاقى ـ و إن لم نحصه ـ العشر
حتى يذوق كما ذقنا فيمنعه   مما يلذ حديث النفس والسهر

و بقية هذين البيتين قصة شعرية من قصصه الممتع اللذيذ فهو يقول :

دست إلى رسولا لا تكن فرقا   واحذر ـ وقيت ـ وأمر الحازم الحذر
إنى سمعت رجالا من ذوى رحمى   هموا العدو بظهر الغيب قد نذروا
أن يقتلوك — وفاك القتل قادره   والله جارك فيما أجمع النفر
السر يكتمه الاثنان بينهما   وكل سر عدا الاثنين ينتشر
والمرء إن هو لم يرقب بصبونه   لمح العيون بسوء الظن يشتهر

* * *

وهذه قصة أخرى من أقاصيص عمر وما أكثر أقاصيصه الشاعرية الممتعة :

لقد حج عمر ونزل إلى مكة : و بينما هو بين الصفا والمروة يسعى لإتمام مناسكه رأى امرأة جميلة أعجبه جمالها فتبعها فنظرت إليه ولكنها أغضت عنه حتى أتمت سعيها

فرأته ما زال ينظر إليها . فقالت لوصيفتها — وكأنها تضرب له موعداً — أرائح عمر مساء أم سيبكر بالسفر ؟ الله يحفظه إن أقام أو رحل ، ولم يجد عمر فرصة فى زحمة السعى للمحادثة معها فتبعها حتى عرف منزلها فلما أجنه الليل صحب سيفه وتدثر بعباءته وذهب حتى وصل إلى منزلها فوجد أمامه أحراساً فاستدار إلى خلف المنزل ووقف فى فنائه . وكان القمر يرسل أشعته عليه والقمر عند العشاق نمام . فوقف فى حذر ويقظة . و إذا به يراها تنضو مجاسدها استعداداً للنوم . ولاحت منها التفاتة إلى ناحيته فرأته فعرفته فلطمت وجهها لهذه المفاجأة ونادت وصيفتها وقالت لها ما بال عمر يخاطر بنفسه ، و يأتى فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ ألا يرى الأحراس ؟ أيريد فضيحتى ؟ أم يريد تحقيق ما قاله الناس عنى من أنى أحب عمر ؟ هلا أرسل إلى رسولا يعلمنى بزيارته حتى أعد للأمر عدته ؟ هلا صبر حتى يغيب القمر ؟ ثم دنت منه ثائرة فطمأنها قائلا إن أحداً لم يره . فاطمأن قلبها وأدخلته وجلس معها إلى الصباح وخرج وقامت مع جواريها يزلن أثر خطوه من فوق الرمل بخمرهن الفخمة الغالية . هذه المغامرة سجلها لنا عمر فى شعره فقال :

وساقنى موقف بالمروتين لها ... والشوق يحدثه للعاشق الفكر
وقولها لفتاة غير فاحشة ... أرائح ممسياً أم باكر عمر . ؟
الله جار له ما أقام بنا ... وفى الرحيل إذا ما ضمه السفر . .
فجئت أمشى ولم يغف الأولى سمروا ... وصاحبى هندوانى له أثر . . .
فلم يرعها . وقد نضّت مجاسدها ... إلا سواداً وراء البيت يستتر
فَلَطَّمتْ وجهها ، واستنبهت معها ... بيضاء آنسة من شأنها الخفر . .
ما باله حين يأت أخت منزلنا ... وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
لشقوة من شقائى أخت علقنا ... وشوم جدى ، وحين ساقه القدر
قالت : أردت بذا عمداً فضيحتنا ... وقطع حبلى ، وتحقيق الذى ذكروا
هلا دسست رسولا منك يعلمنى ... ولم تعجل إلى أن يسقط القمر

فقلت داع دعا قلبي فأرقه ... ولا يتابعنى فيكم فيزدجر . .
فبت أسقى عتيق الخمر خالطه ... قرنفل فوق رقراق له أشر
وعنبر الهند والكافور خالطه ... شهد مشار ، ومسك خالص ذفِر
حتى إذا الليل ولى قالتا زمراً ... قوماً بعيشكما قد نور السحر
فقمت أمشى وقامت وهى فاترة ... كشارب الخمر بطى مشيه السكر
يسحبن خلفى ذيول الخز آونة ... وناعم العصب كيلا يعرف الأثر

إنه مشهد سينمائى فيه كل ما فى السينما من أضواء وظلال وحوار . وأمثال هذه المشاهد فى شعر عمر كثيرة بل إن شعر عمر كله مشاهد غرامية وهذا اللون من الشعر يعد خروجاً عن المألوف الذى كان متبعاً عند الشعراء . فلقد كانوا أكثر ما يعنون بالنسيب كمقدمة للمديح . أو كانوا يعنون بالنسيب ليصفوا ما يلاقونه من صد وهجران . أو ما يحسونه من ألم وحرمان . ولكن عمر خرج عن كل ذلك بتصوير المواقف الغرامية . وتسجيل ما يحدث له من مغامرات يومية . وسرد ما قال لحسناواته وما قلن له . فنحن إذا قرأنا شعر عمر . وجدنا أنفسنا أمام مشاهد سينمائية وحوار ممتع بلغة سلسة سهلة مهذبة . وفى مقطوعات قصيرة غير مملة وأظن عمر بن أبى ربيعة كان متفاهماً مع مدرسة أبولو فى الاتجاه الشعرى ولا أظن . إلا أن عمر قد نال إعجاب الأستاذ السحرتى كناقد . فإذا قيل لماذا خرج عمر عن مألوف الشعراء . ولم يخرج غيره من شعراء زمانه ؟ فإننا نجد للإجابة على ذلك كثيراً من الأسباب تضافرت على إبراز شعر عمر بهذه الصورة . منها أن أسرة عمر أسرة تجارية والأسر التجارية كثيرة الاختلاط بالناس . وهذا الاختلاط يقتضيها أن تكون رقيقة الطبع دمثة الأخلاق تختار من أساليب الكلام الأسلوب السهل المفهوم عند كل من يسمعه . وتبتعد ما أمكنها عن الفخامة والضخامة .

وكانت تجارة أسرته فى العطور والحرير . والأحجار الكريمة . والأثواب الناعمة . وأكثر الناس شراء لهذه الأشياء ذوو الثروة واليسار . وكانت جدته لأبيه

تبيع العطر وز بائنها من النساء . فانطبعت فى مخيلته منذ الطفولة هذه المرائى البراقة مرائى النساء الجميلات اللواتى يفوح العطر من أكمامهن ومرائى الأثواب الناعمة والأحجار المتلألئة . ودرج لسانه منذ الصغر على ما يسمعه من كلام ناعم وعبارات مهذبة .

ومن الأسباب أيضا تطور المجتمع الذى نشأ فيه ذلك التطور الذى تقدم وصفه . ومن الأسباب أيضا أنه كان غنيا موسرا لا يهمه شىء من أمر اللقمة والكسوة والمسكن . فإن ذلك متوفر له بصورة لم تتوفر لشاعر مثله .

ومن الأسباب أنه كان ينظم الشعر لا ليلقى فى مجالس الخلفاء الذين لا يرضيهم الشاعر إلا إذا كان جزلا فى أسلوبه فخما فى كلماته وعباراته . وإنما كان يقول الشعر ليسهل فهمه على حسناواته من جهة ومن جهة أخرى ليسهل تلحينه على المطربين والمطربات وساعده مزاجه الشعرى واستجاباته النفسية . إلى هذا اللون من الشعر فكان مبرزا فيه . . فهو لا يعنى بالسياسة أو أن السياسة لا تعنيه فى قليل أو كثير . ونفسه لا تميل إلى الملاحاة والتهاجى ، وليس هو بحاجة إلى التفاخر القبلى كما يفعل غيره من الشعراء فقد اعترف الناس لقبيلته بالسبق فى كل شىء . وأسرته غنية بأمجادها ومناقبها . وأخدانه وخلانه لا يريدون منه إلا شعراً يكمل لهم متعتهم ويزيد لهم فى مباهج حياتهم . كل هذه الأسباب تهيأت لعمر فجعلت منه صاحب مدرسة خاصة فى الشعر العربى . وإمام طريقة لا يزال أتباعه من شعراء الشعر الغنائى . يسيرون على سنته ومنهاجه فيها . حتى الآن .

وقد أحس شعراء زمانه بأنهم لا يحسنون ما يحسنه عمر . وأنه جاء فى شعره بنغمة شعرية جديدة على أسماعهم فقد سمع الفرزدق عمر ينشد قوله :

فقمن لكى يخليننا فترقرقت مدامع عينيها وظلت تدفق
وقالت : أما ترحمنى ، لا تدعنى لدى غزل جم الصبابة يخرق
فقلن : اسكتى عنا فلست مطاعة وخلك منا فاعلمى بك أرفق . . .

فقال له الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس لا تحسن والله الشعراء أن يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية . هذا الذى أرادته الشعراء فأخطأته . و بكت على الديار . وما كان للفرزدق أن يقول مثل هذا القول لولا أنه سمع نغمة شعرية لم يسبق للفرزدق أن سمع مثلها من غير عمر .

ولما أنشد عمر جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة قوله :

فسلمت وأستأنست خيفة أن يرى عدو مقامى ، أو كاشح فعلى
فقالت وأرخت جانب الستر : إنما معى تكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت : ما بى لهم من ترقب . . ولـكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طبيبات بحالة ذى التبل . .
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا نطف ساعة فى طيب ليل وفى سهل
فقالت : فلا تلبثن ، قلن : تحدثى أتيناك ، وانسبن انسياب مها الرمل
فقمن وقد أفهمن ذا اللب إنما يأتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

قال له جميل : « هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالى ، والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد » .

و إذا حدثنا عمر فى شعره عن النساء . فإنما هو ينقل لنا أحاديثا لا تصدر إلا من النساء . ومثل هذه الأحاديث يقولها النساء فى كل مكان وفى كل زمان . ولـكن براعة عمر تبدو فى الدقة التى ينقل بها لنا تلك الأحاديث فمن ذلك قوله :

فلوت رأسها ضراراً وقالت : لا وعيشى ولو رأيتك متنا
حين آثرت بالمودة غـيرى وتناسيت وصـلنا ومللتنا . . .
قد وجـدناك إذ خبرت ملولا طرفا لم تكن كما كنت قلتا

وقوله :

قالت على رقبة يوما لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد تبلا
وهل لى اليوم من أخت مواسية منكن أشكو إليها بعض ما فعلا

فراجعتها حصان غير فاحشـــة برجع قول ، ولب لم يكن خطلا
لا تذكرى حبـــه حتى أراجعه انى سأ كيفكه ، إن لم أمت عجلا
فاقنى حياءك فى ستر وفى كرم فلست أول أنثى خادنت رجلا

وحينما سئل حماد الراوية عن شعر عمر قال : « ذاك الفستق المقشر . وما كان لحماد أن يقول هذا القول لولا أنه وجد لشعر عمر طعما لذيذ المذاق لم يجده فى شعر غيره على كثرة ماذاق حماد من طعوم الشعر .

أقوال النقـاد القدامى :

لقد فتن النقاد القدامى بعمر افتتاناً شديداً ، فلم يهمله ناقد من معاصريه . وكل من ألف عن الشعر والشعراء لابد وأن يفرد الصفحات الطوال لعمر ولشعر عمر . و إننى أذكر لحضراتـكم بعض ما قالوه فيه . فمن ذلك ما قاله يعقوب بن إسحاق ، ونقله عنه صاحب الأغانى ، قال يعقوب : كانت العرب تقرلقريش بالتقدم فى كل شىء إلا فى الشعر فإنها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرت لها الشعراء ولم تنازعها شيئاً .

وقال نصيب الشاعر لما سئل عن شعر عمر : « أن عمر أوصفنا لربات الحجال » . وقال جرير : وهو من أشد المنـكرين على عمر شاعريته . فقد كان إذا سمع شعر عمر يقول هذا شعر تهامى إذا نجد وجد البرد فلما سمع قوله :

رأت رجلا أما إذاالشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر
قليلا على ظهر المطيـــة ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحدائق أخضر . .
ووال كفاهـا كل شىء يهمها فليست لشىء آخر الليل تسهر

قال جرير : مازال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر . وجرير كما يبدو لنـا لا يحب شعر الأغانى فلذلك تحامل على عمر فلما سمع من عمر قصيدته هذه ورأى

إشراق الديباجة ومتانة الأداء عرف أن عمر لا يعجزه هذا اللون من الشعر فأقر له بالإجادة والتبريز .

وسمع أحد شيوخ الأدب من قريش قول عمر :

ياليتنى قد أجزت الحبل نحوكمو حبل المعرف أو جاوزت ذا عشر
إن الثواء بأرض لا أراك بها فاستيقنيه ثواء حق ذى كدر
وما مللت ولكن زاد حبكمو وما ذكرتك إلا ظلت كالسدر ..
ولا جذلت بشىء كان بعدكمو ولا منحت سواك الحب من بشر
أذرى الدموع كذى سقم يخامره وما يخامرنى سقم سوى الذكر
كم قد ذكرتك لو أجدى تذكركم يا أشبه الناس كل الناس بالقمر

فقال هذا الشيخ القرشى : « إن لشعر عمر وقعاً فى القلب ، ومخالطة للنفس ، ليسا لغيره ، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً » .

وقد قيل الشىء الكثير عن شعر عمر قديماً مما لا تستوفيه مثل هذه المحاضرة .

أقوال النقاد المحدثين :

قد فتن النقاد القدامى بشعر عمر فقالوا عنه الشىء الكثير .

أما النقاد المحدثون فلم يكونوا مفتتنين بعمر كزملائهم القدامى فحسب بل هم أشد افتتاناً به . وأكثر تقديراً لشعره . وإنى أنقل بعض ما قاله بعض أعلام الأدب والنقد المعاصرين فى شعر عمر . يقول الدكتور طه حسين فى كتابه (حديث الأربعاء) عند كلامه عن عمر :

« فعمر إذن زعيم الغزليين الأمويين جميعاً لا نستثنى منهم أحداً . ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة . بلى نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزليين فى الأدب العربى على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى إلى الآن » . هذا قول عميد الأدب العربى فى العصر الحديث

عن شاعرنا الحجازى الخالد عمر بن أبى ربيعة ، وقارنه الدكتور طه بالأديب الأفرنسى « بيير لوتى » .

ويقول الأستاذ محمود عباس العقاد : فى كتابه (شاعر الغزل) عن عمر بن أبى ربيعة : « وقد كان عمر إمام مدرسة اللاهين غير مدافع » ، والأستاذ العقاد كما تعرفونه كثير الضن بالألقاب ، ولكنه لم يضن على شاعرنا بلقب الإمامة .

أما الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة . فقد امتلأت نفسه إعجابا بعمر وبشعر عمر . فأفرغ هذا الامتلاء فى كلمتين جامعتين فقال عنه فى كتابه (أعلام الأدب العربى) : « إنه عبقرى عظيم » .

ويقول الأستاذ جبرائيل جبور فى كتابه الضخم ، (عمر بن أبى ربيعة) .

« ولم يكن عمر شاعر قريش فحسب بل كان شاعر الحجاز فى عصره فى الغزل ، حمل لواء الشعر الغزلى ونشره . ينشد الحب والجمال . وسار وراءه الشعراء الغزلون يقتفون آثاره ، فكان زعيمهم وكان إمامهم ، وكانت مدرسة غزلية خلفت فى الأدب العربى أثراً قيما ، وحفظت للأجيال تراثا عظيما » .

وشبهه الدكتور أحمد ضيف « بألفريد دى موسيه » الأديب الإفرنسى . وقال عنه الدكتور شوقى ضيف ، فى كتابه « الشعر الغنائى » فى الأمصار الإسلامية : « عمر أكبر شاعر غنائى أنتجته حركة الغناء فى مكة » .

هذه بعض أقوال أعلام الأدب فى عصرنا الحديث عن عمر بن أبى ربيعة . ولم يشذ أحد منهم عن اعتبار عمر صاحب مدرسة ، وإمام طريقة مبتكرة فى الأدب العربى . وما زال الشعراء الغنائيون يحذون حذوه ويتلمسون طريقته ويسيرون على نهجه . . فهو خالد بخلود الأدب .

خلود عمر :

ولم يكن عمر بن أبي ربيعة خالداً بشعره القصصي والغزلي فحسب ، وإنما خلد بحكمه الروائع التي ما زالت تدور على ألسنتنا عند مناسباتها . فمن أبياته الحية بحياة الناس قوله :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقوله :

إن كنت حاولت دنيا أو رضيت بها ... فما أخذت بترك الحج من ثمن

وقوله :

تشط غداً دار جيراننا . . ... وللدار بعد غد أبعد

وقوله :

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني

وقوله :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

وقوله :

السر يكتمه الاثنان بينهما ... وكل سر عدا الاثنين ينتشر

وقوله .

كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

وقوله :

وذو الشوق القديم وإن تعزى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

وغير هذه الأبيات مما جرى مجرى الأمثال . بذلك و بغيره مما شرحناه خلد عمر في الأدب العربي وفي الحياة العربية .

عمر الإنسان الفنان :

لقد تكلمت عن عمر الفتى المترف ، وعن عمر الشاعر الغزل . بقى على أن أتحدث إليكم أيها السادة عن عمر الإنسان لنرى .

هذا الرجل الذى ورث الغنى والشرف عن آبائه وأجداده . وشغل نفسه بالنساء والشعر . هل كان إنساناً يشعر بآلام الإنسانية ؟ أوكان مغلق القلب والضمير ، لا يهمه إلا أمر نفسه ؟ وهى ناحية مهمة لا بد لدارس عمر أن يعرف عنها شيئاً . ولا أريد أن أطيل عليكم فى ذلك ، وإنما أريد أن أنقل إليكم حكاية نستشف ما كانت تنطوى عليه نفس عمر من خير أو شر . وقبل أن أسرد عليكم حكاية الأغانى أوجه أنظاركم إلى ما حدث لهذا الشاعر فى أواخر عمره ، فقد أجمع الرواة على أن عمر ترك الشعر وانصرف عن الغزل والتشبيب بالنساء إلى العبادة ، وآلى على نفسه أن لا يقول الشعر ، وإن قاله فسيعتق عن كل بيت يقوله رقبة .

أما ملخص الحكاية التى يرويها صاحب الأغانى ، فهى : أن عمر بعد أن نسك كان يطوف بالكعبة فوجد فتى عربياً يهامس فتاة فى المطاف . فأنكر عمر عليه هذا الفعل ، وبخاصة إذا كان فى ظل الكعبة ، فقال له الفتى : إنها ابنة عمى ، فقال : ذلك مما يزيدنى إنكاراً عليك ومؤاخذة لك قال : إنى خطبتها من عمى فأبى إلا أن أدفع له أربعمائة دينار . وأنا فقير لا أملك هذا المقدار من المال . فإن أردت أن تحسن إلى وإليها . فاذهب إلى عمى لعله أن يستحى منك ، ويزوجينها فذهب عمر إلى أبى الفتاة . ودفع له الأربعمائة دينار ولم يبرح مكانه ، حتى رأى الفتاة تزف إلى الفتى .

فلما عاد إلى منزله ، كلمته جاريته فلم يرد عليها ، فقالت : والله لا أراك إلا قائلا شعراً . فانفجرت نفسه بهذه الأبيات :

تقول وليدتى لما رأتنى ... طربت ، وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً ... وهاج لك الهوى داء دفينا

وكنت زعمت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقت القرينـا
بربك هل أتاك لهـا رسول فشاقك ، أم لقيت لهـا خدينا ؟
فقلت : شـكى إلى أخ محب كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص على ما يلقى بهنـد فذكر ، بعض ما كنا نسـينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حـين يلقى العاشقينا
وكم من خـلة أعرضت عنها لغـير قلًى وكنت بهـا ضنينا
أردت بعـادها فصددت عنها ولو جن الفؤاد بهـا جنونا

ثم استدعى تسعة من رقيقه وأعتقهم لـكل بيت واحد . وأظنكم متفقين معى أنها إنسانية مرفرفة وهذا يرينا فى عمر حقيقة الإنسان الفنان ، وهى التى دفعته إلى أن يضم هذه الفتاة إلى ابن عمها فى عش الزوجية ، الذى كانا يتمنيانه . ونستشف من الأبيات التى قالها مبلغ محاربته لنفسه فى اعتزال الشعر واعتزال النساء على شدة ما يلقى من جهد وعناء فى هـذا السبيل . ولـكن إرادته القوية أبت عليه إلا أن يمضى فى توبته وفى نسكه .

أردت بعـادها وصددت عنها ولو جن الفؤاد بهـا جنونا

وعلى هـذا النحو من النسك والمشاعر الإنسانية وذكريات الفنان وحنينه انتهت حياة عمر .

شجاعة عمر :

أما شجاعة عمر فهى غير منكورة فقد كان يعتمد على سيفه عند المخاطر فهو يقول:

وطرقت الحى مكتتما ومعى عضب به أثر
وأخ لم أخش نبـوته بخوافى أمرهم خـبر

فـكما تغنى عمر بحبه وبحسانه تغنى بسيفه . وقد أكثر فى شعره من ذكر سيفه والتغنى به والاعتماد عليه عند المخاطر .

إباء عمر :

ويكفينا إذا أردنا أن نتحدث عن إبائه أنه لم يترام على أبواب الخلفاء ، ولم يمدحهم ولم يشره إلى نوالهم وإعطاءاتهم الضخمة المغرية . وكبرياؤه على الملوك على شدة رغبتهم فى مديح يسمعونه منه ، معروف وقد تقدم أن الوليد بن عبد الملك قال له ما يمنعك من مدحنا ؟ فقال له عمر : إننى لا أمدح الرجال ، دون أن يتهيب مجلس الخليفة ، أو يداهنه فى سطوته وسلطانه .

أين مات عمر :

روى الأغانى أن عمر لما مرض مرضه الذى مات فيه جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً ، فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بى ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط ، فقال : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك وقد سليت عنى .

ويقول صاحب الأغانى فيما يرويه قال : أشرف عمر بن أبى ربيعة على أبى قبيس وبنو أخيه معه وهم محرمون ، فقال لبعضهم خذ بيدى ، فأخذ بيده ، فقال : « ورب البنية — يقصد الكعبة — ما قلت لامرأة شيئا قط لم تقله لى وما كشفت ثوبا عن حرام » . فإذا صحت هاتان الروايتان فيكون موت عمر بمكة لأن أخاه كان يقيم بها ولأن جبل أبى قبيس من جبال مكة ، كما هو معروف لديكم ، وعلى كل ، فإن عمر قد عمر طويلا ، وقد كثرت الأقوال عن سنه حين مات ، ولكنها فى جملتها لم تنقصه عن السبعين . . ولقد قضى عمر سنى حياته الشعرية كالطائر الغريد الذى لا ينتقل من دوحة إلا ليرف على بانة ، ولا يهبط من فنن إلا ليترع من جدول ، ولا يغادر غصنا إلا ليحوم على زهرة ، ولا يكاد يستظل فى خميلة حتى يثب إلى غيرها . ومن يقرأ ديوان عمر لا يكاد يفرغ من قراءته إلا وهو ممتلىء صبابة ، ونشوة . وربما رأى روح عمر الجميلة وهى تورده معها مسارح أنسه ، وملاعب صبوته فى جنان الطائف ، أو فى شعاب مكة ، أو فى غابات النخيل بالمدينة أو بأودية الحجاز الشهيرة بجمالها حيث الوجوه الصباح ، والعيون الدعج ، والثغور المفلجة ،

والجمال الساحر الأخاذ ، الذى هيمن على مشاعر عمر وأحاسيسه . وأوحى إليه هذا الشعر الغنائى الخالد .

لقد كان عمر بسمة من بسمات الأدب العربى يتهلل بها وجه العروبة بشرا وانطلاقا .

رحم الله عمر وأسبغ على ضريحه شآبيب الرحمة والغفران . وإن الحجاز ليفخر بشاعره العظيم الذى شارك فى بناء الحضارة العربية بفنه الجميل ، وزود الأدب العربى بثروة فنية ضخمة ، لها مكانها فى دنيا الشعر والغزل والغناء ! !

دراسة ونقد[1]

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجه

عمر بن أبى ربيعة شاعر الحجاز الكبير فى القرن الأول للهجرة ، أطرف شخصية أدبية فى الأدب العربى القديم وحياته وشعره صورة فنية متميزة للحياة العربية فى بيئة الحجاز فى أزهى عصوره الإسلامية .

وما أجمل الحديث عن عمر وأعذبه ، عمر شاعر الغزل القصصى ، وزعيم مدرسة الغزليين فى هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قريش ، والذى عاش لا يهجو ولا يمدح وإنما ينظم فى فنه الشعرى الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقاً فى الشعر العربى ، الذى كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين فى القديم والحديث ، اهتماماً لم ينله الكثير من الشعراء الأقدمين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضع عناية الأدباء واهتمام القراء ؛ فإن الحديث عن عمر من شاعر أديب حجازى معاصر يجعل لبحثه أهمية كبيرة فوق أهمية الموضوع نفسه .

ومن ثم فرحت فرحاً كثيراً عند ما دعوت الشاعر الحجازى المجدد الأستاذ إبراهيم هاشم الفلالى ليحاضرنا ، عن عمر فى حلقات رابطة الأدب الحديث فى القاهرة ، وفرحت أكثر من فرحى الأول عند ما قدم لى الكتاب فى آخر مراحل طبعه لأسجل ما وجه إلى بحثه من نقد ليلة إلقائه فى ندوة الرابطة الأدبية ، وإنى لأضع بحث شاعرنا الفلالى عن شاعر الحجاز الخالد فى صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتب وهو أعرف الناس ببيئة الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبنفسية شاعر كان يعيش فى هذه البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

---

(١) من عادة رابطة الأدب الحديث أن تنقد وتعلق على المحاضرات التى تلقى بقاعتها . وهذ تعليق الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجه وكيل الرابطة على هذا البحث .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلالى الشاعر فى صدر كتابه يصور منهجه فى كتابه للقراء : « ستجد[١] أيها القارىء العربى المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك فى محاضرة ألقيت فى رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ؛ وسوف تجد فى تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازى تطورات المجتمع فى فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذى قام بنشر الدعوة الإسلامية ؛ وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازى ، ولعلك تجد شبهاً بين تطوره فى ذلك العهد وتطوره فى العهد الحاضر ؛ ولعلك أيضاً تلمس كيف استطاعت العبقرية الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور ؛ فتسهم فى بناء الحضارة من الناحية الفنية ، ومن الناحية الفقهية ، وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنى فى الشعر والغناء والموسيقى وابتكارهم فى هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً خالداً ما زال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور » .

ويلتفت الفلالى الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر فيقول بعد قليل من كلامه الأول : « ولعلك واجد فى محاضرتى شيئاً لم تجده فيما قرأته عن عمر فى كل ما كتب عنه[٢] » .

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه ، والأسباب المختلفة التى أدت لذيوع موجة الغناء والمرح فى الحجاز فى عصر عمر ، من سياسية واجتماعية وسوى ذلك ، ثم تحدث عن عشيرة عمر وأسرته ، وعن مولده ونشأته ، بيد أن المؤلف يوجز إيجازا شديدا فى حديثه عن نشأة عمر ، وما كان أحراه بأن يطيل كل الإطالة ، وأن يفيدنا الفائدة كلها ، الفائدة التى لا تترقب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلالى فى جلده على البحث وفى ذكائه وألمعيته . ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه ، وانتقاله إلى مكة ، ويدفع عن عمر ما يلصقه به الجاهلون من الكتاب ، فيذكر لنا أن عمر « قد عرف لنفسه مكانتها ، فلم يتبذل فى شعره ، ولم يرنا فحشا فى الكثرة الكاثرة مما نظم[٣] » . .

---

(١) ص ٨ وما بعدها . (٢) ص ١٢ . (٣) ص ٤٨ .

وينتهى المؤلف الشاعر الفلالى من هذه الجوانب كلها ، ليبتدىء حديثا عذبا جميلا عن شعر عمر ، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان « مذكرات يومية يسجل فيها حياته[1] الخاصة » ، وما أطرف الجوانب الغامضة التى كشف عنها الفلالى فى كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراء النقاد فيه القدامى والمحدثين منهم ، ومكانته فى الشعر الحجازى ، وحكمه الكثيرة فى شعره . ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات ؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات .

ومع ذلك فإن حديث الفلالى عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الوقت والظروف التى كتب بتأثيرها محاضرته .

ولكنى مع هذا الإيجاز الشديد الذى لجأ إليه المؤلف ، أعتقد أن قارىء هذا الكتاب الصغير الحجم ، يخرج بصورة عن شخصية عمر لا يخرج بها حينما يقرأ كل ما كتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته .

وهناك آراء متعددة فى الكتاب لها سمتها من الطرافة وروعة التصوير .

ومع ذلك فإنى أزعم أن الفلالى لم يفرغ بعد من عمر ، وأن عليه واجبا أدبيا كبيرا لتراثنا الخالد من الأدب العربى ، هو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره ، عندما تسمح له أحواله الأدبية والفكرية بذلك .

إننى أهنىء الفلالى بدراسته ، وأهنىء الأدب العربى بهذا الحديث الشائق الذى استلب أذهاننا بطرافته وروعته وقيمته ؟

محمد عبد المنعم خفاجه

(١) ص ٥٢ .

ليتنا نفهم ؟؟؟

لقد عرفت الشعوب طريقها إلى الحياة الصحيحة ، ولم تعد تنطلى عليها حيل المحتالين ، ولا خديعة المخادعين . وأصبحت المظاهر الخلابة التى كان الحاكمون القدامى يحيطون بها أنفسهم . إن لم تكن مثاراً للحقد والكراهية فهى مثار الهزء والسخرية من المحكومين وأصبح نجاح الحاكم يتوقف على سيره فى الطريق التى يرسمها الشعب — أى شعب — لحاكميه . واحترام الحاكم أصبح وقفاً على مبلغ قدرته على قطع الطريق الذى يرسمه شعبه .

فإذا ما سار الحاكم فى الطريق الذى رسمه شعبه ونجح فى السير باستمرار كان من الحكام الخالدين الذين يستحقون التمجيد والإكرام . وإذا تخطى أو سولت له نفسه أن يتخطى ذلك الطريق كان عرضة لغضبة الشعب . وهل وراء غضبة الشعب إلا الطرد والتخويف حتى يصبح مهدداً فى حياته . وتضيق عليه الأرض بما رحبت .

* * *

لقد لفظ الشعب الأردنى هزاع المجالى من دست الحكم لأنه كان يريد السير فى طريق غير الطريق الذى يريده الأردنيون وقد سبق للشعب المصرى أن لفظ فاروق وأطاح به وبعرشه وبكل سادن لذلك العرش . لأن فاروق لم يسلك الطريق الذى يريده المصريون .

واستطاع الشعب المراكشى الأعزل أن يرغم فرنسا ذات العدة والعدد على إعادة محمد بن يوسف إلى أريكته . لأن سلطان مراكش سلك الطريق الذى لا يريد شعبه أن يسير فيه . فضحى بسلطانه إرضاء لرغبات الشعب المراكشى الكريم . وبهذه التضحية استطاع محمد بن يوسف أن يبنى قاعدة شعبية متينة يستند عليها فى الملاحم والأزمات .

وهكذا أصبحت الشعوب لا تحب من حكامها إلا الحاكم الذى تتمثل فيه الرغبات الشعبية السامية النابعة من الصميم .

و بقدر تحقيق الحاكم للأمانى والرغبات الشعبية الصاعدة بقدر ما يكون حب الشعب له . و بقدر استخفافه بها وتقصيره فى الاستجابة لها تكون نفرة الشعب منه .

و بذلك أصبحت الأحراس الغلاظ لا تقى الحاكم من غضبة شعبه مهما أمعن فى الاستكثار منها . والشىء الوحيد الذى يقيه ويقى سلطانه القواعد الشعبية التى يبنيها الحاكم بجهده وعرقه وسهره عليها . والقواعد الشعبية المتينة لا تبنى بالتصدق عليها . ولكن تبنى بإعطائها حقوقها من إنشاء المدارس والمستشفيات والمصانع وتهيىء العمل وتوفير المأوى والملبس والغذاء . وتحقيق الأمانى السامية التى تهب الأمة حياة كريمة فاضلة .

وقد فطن الحكام النابهون لهذا وغفل عنه الذين يعيشون بالعقليات التقليدية العتيقة البالية التى ورثوها من عصور الظلمة والاستبداد .

تلك العصور التى كانت تسمى الحكام سراتاً وسادة . وتسمى الشعوب سوقة وعبيداً .

والحكام النابهون الذين يضحون بالمظاهر الخلابة التقليدية إنما هم يزيدون من تمكين سلطانهم فى النفوس . و يدعون نفوذهم يمتد حتى يصل إلى أعماق الحياة ، و يصبحون جذوراً راسخة فى تاريخ شعوبهم يمدونها على الدوام بالحركة والنماء .

أما الذين يُصِرُّون على السير بالحكم فى القرن العشرين على ما كان يسير به الحكام فى القرون المظلمة . اعتماداً على ما يطفو على السطح من زبد وفقاقيع ، وعلى مرتزقة يزخرفون الأقوال و يحسنون القبيح و يقبحون الحسن . ولا يعلمون عن الأعماق شيئاً . فإنما هم يعجلون بنهايتهم و يكتبون آخر سطور حياتهم بأيديهم . ولو اقتصر الأمر على ذلك لهانت المسألة . ولكنهم يتركون شعوبهم عرضة لتجارب قاسية ومؤلمة وأقل ما ينالهم من جراء ذلك أنهم يتخلفون تخلفاً مزريا قبل أن يلحقوا بمواكب الأحياء .

والشواهد كثيرة إذا نظرنا إلى حياة الأحياء التى تمتلىء بهم هذه الدنيا الفسيحة فما من شعب تطور حاكموه وتطورت سياستهم مع ما يتفق وسنن الحياة إلا وكان أرقى من غيره وأسبق فى كل مرفق من مرافق الحياة . وأكثر نتاجا فى كل ما يتجه إليه النشاط الإنسانى من نتاج على تنوعه واختلافه .

فالحاكمون الذين لا يخشون أن تهتز كراسى الحكم من تحتهم يعملون وهم آمنون وبذلك يقفزون بشعوبهم قفزات موفقة فى ميادين الحياة الفاضلة والعيش الرغيد الكريم.

أما الذين لم يعملوا على إسناد كراسيهم بالقواعد الشعبية المكينة فهم فى شغل شاغل عن ذلك لأنهم متفرغون إلى محاربة المخاوف التى تنتابهم من القلق على مصيرهم . والحياة القلقة لا يمكن أن تكون حياة قوية أو منتجة أو على الأقل سليمة من الأمراض الوبيئة الفتاكة .

فكم كانت الحياة القلقة سبباً للانهيار العصبى فى الأفراد ففقدوا بذلك الشعور بكل شىء حتى الشعور بالحياة .

وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الجماعات والشعوب من القاعدة إلى قمة الهرم ذلك لأن الحاكم الذى يستند إلى قاعدة شعبية يلقى عن كاهله كثيراً من الأعباء . ثم هو فى العاقبة يظفر بأكاليل الغار . والقاعدة لا تنفس عليه ذلك لأنها تعتبره رمز جهدها وجهادها ، والنجمة اللامعة فى صرح أمجادها .

أما الذين لا يهمهم أمر القواعد فى شىء . وإن اهتموا بها فلا يهتمون إلا بالأصباغ الظاهرة فإنما يسرعون بتمهيد طريقهم إلى الهاوية .

فياليت . . ياليتنا نفهم . ونعمل بعقلية العصر الذى نعيش فيه ونعنى بالشعوب . فإنها القاعدة التى يستند إليها الحكام الأقوياء النابهون . وبذلك نستطيع أن نطرد من حياتنا أشباح المخاوف التى تحيط بنا . ياليت .

كتب صدرت للمؤلف

رجالات الحجاز	طبع طبعتين
صبابة الـكأس	رباعيا شعرية
الحانى	ديوان شعر
صدى الألحان	« «
عمر بن أبى ربيعة	تحليل لعصوره وشعره ومجتمعه
المرصاد	ثلاثة أجزاء (نقد للأدب الحجازى) طبعت طبعتين
أين نحن اليوم ؟	محاضرات وأحاديث و بحوث وطنية و إسلامية
مع الشيطان	قصص من الحجاز ومن مصر

كتب صدرت لكُتّاب من الحجاز

مسرحية الشياطين الخرس	للأستاذ عبد الله عبد الجبار
كيف كنا ؟	للأستاذ عبد الله الخطيب
فطرة من يراع	للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
فى ربوع عسير	للأستاذ عمر رفيع
تاريخ مكة	الأستاذ أحمد سباعى
من تاريخنا	للأستاذ محمد سعيد عامورى

وقريبا

سيصدر كتاب (قصة الأدب فى الحجاز)

بقلم الأستاذين

عبد الله عبد الجبار ، وعبد المنعم خفاجة

سيصدر

ديوان

شاعر الحب والغنـــاء

الشاعر الحجازى الخالد

عمر بن أبى ربيعة

وسيكون هذا الديوان جديداً

فى

إخراجه ، وتحقيقه ، وتصحيحه ، وتقديمه

كل ذلك بقـــلم

ابراهيم هاشم فلالى .

فهرست الموضوعات